

الكتاب العربي السعودي



محمد سعيد العامودي

مِن أوراقي

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشـــر

تهـــامـــة

جـدة ـ المملكة العربية السعودية
ص.ب : ٥١٥٥ ـ هاتف : ٦٤٤٤٤٤٤

مِن أوراقي

حضارة بلا أخلاق

ماهي الحضارة أولا؟

قد يقول قائل: إنها بلوغ الأمة مركزاً ممتازاً في التقدم العمراني والاقتصادي، وقد يضيف إلى ذلك، شيئا، أو أشياء أخر.. كأن يقول مثلا: و بلوغها أيضاً مركزاً شبيها بذاك في ميادين العلم والفن والثقافة والتفكير!

وظاهر أن هذا هو مبلغ فهم الكثرة الغالبة من الناس لمعنى الحضارة، فأية أمة من الأمم سارت فيها أمورها الاقتصادية والعمرانية على نسق تقدمي.. وقامت فيها دولة للعلم والأدب وارفة الظلال، وارتقى فيها التفكير وأصبح المتعلمون فيها هم السواد الأعظم.. صح أن يقال عن هذه الأمة إنها أمة متحضرة أو إنها في سبيل التحضر، ذلك لأن بناء حياتها الجماعية أو الفردية أصبح قائما على دعائم ثابتة من جميع العناصر الأولية لكل حضارة من الحضارات.

والواقع أن العلم والأدب والثقافة والاقتصاد والعمران أصول لاشك فيها لكل حضارة قديمة أو حديثة، ومن العبث، ومن لغو الحديث أن يقال عن أمة ينقصها العلم، أو ينقصها الأدب، إنها أمة متحضرة، كما أنه باطل الأباطيل أن يقال عن أمة متأخرة في حياتها الاقتصادية، وليس لها أي انتاج قائم بذاته، وليس في بلادها أي مظهر من مظاهر العمران والتنسيق.. إن هذه الأمة لها في الحضارة نصيب!

ولكن هل صحيح ان هذه وحدها، هي الأصول الأولى لكل حضارة؟ وهل صحيح أن مجرد كون الأمة أصبحت غنية مترفة سواء في حياتها المادية أو حياتها العقلية، يكفي — دون أي شيء آخر سواه.. — لأن يعدها في مصاف المتحضرين؟!

إن الجواب على مثل هذا السؤال قد يكون عسيرا لدى أولئك الذين تعودوا — بدافع من سوء الفهم أو بدافع من التقليد — أن ينظروا إلى الحضارة على أنها مظهر مادي لا أكثر ولا أقل.. إن أولئك الذين يحملون مثل هذا التفكير الخاطىء، وأولئك الذين فتنتهم حضارة أوربا الراهنة، بآلاتها الضخمة، ومظاهرها الساحرة الخلابة، وما يكمن وراء هذه المظاهر من إشباع لشتى أنواع الغرائز.. ثم أولئك الذين أتيح لهم أن ينهلوا من معاهد الغرب، و يعيشوا بين ظهراني أهله زمناً طال أو قصر، أولئك وأولئك جميعاً، ماذا يجيبون على مثل هذا السؤال؟

لاشك أن فريقاً متطرفا منهم لايتردد في أن يقول إن هذه هي الشروط الوحيدة لكل حضارة

وهي تكفي لاكتمال معناها، وتثبيت كيانها، فلندع هذا الفريق وما يقول فلا نظن مجرد الكلام يغني شيئاً، ولننظر إلى ما عسى أن يقوله الآخرون من أولئك الذين تعشقوا حضارة الغرب وآمنوا بأمثلتها العليا، ولكنهم يختلفون عن الفريق الأول بالنظرة الوئيدة، وطول التفكير!

هذا الفريق المتسم بالتفكير المتشدد والأناة وعمق النظرة بالاضافة إلى سواه من رجال العلم والبحث والفكر، سواء كانوا قدامى أو محدثين، شرقيين أو غربيين، هؤلاء جميعاً يتفقون في أن الحضارة —ونحن نعني كل حضارة بالطبع— لا تكمل بتلك العناصر وحدها وإلا أصبح معنى الحضارة شيئاً قميناً بكل زراية.. لابد للحضارة إذن من عنصر آخر يضم إلى كل هذه العناصر، بل الأحرى بهذا العنصر أن يكون بالنسبة إلى بقية العناصر: عنصرها الأساسي، لأنه العنصر الأقوى والأكمل والأهم.. ولأن وجوده بمثابة وجود الروح مع الجسد، لابد إذن من وجود هذا العضو الأساسي، لكي يبعث فيها الحيوية، و ينقّي فيها الدم، و يدعم فيها الأسس، و يركز فيها الجهود ويحقق من وجودها غاية الانسان المثلى، وسعادة الفرد وسعادة الجماعة، وأهداف الحق والخير والجمال.

ونحن إذا قلنا إن «الأخلاق» هي العنصر الأساسي لكل حضارة عليها يجب أن تقوم، وعلى ضوئها يجب أن تسير، فإنما نقول هذا، و يقوله معظم الناس، لأن التاريخ وسنن الاجتماع قد أثبتا بصورة جلية أن كل حضارة من الحضارات القديمة، وفي طليعتها الحضارتان اليونانية والرومانية إنما كان أول عوامل انهيارها: «انهيار الأخلاق»!

وأول ما تتمثل الأخلاق في الصدق والشجاعة والصراحة والوفاء بالعهد ومراعاة حقوق الغير، واحترام الآخرين.

وما من شك في اننا إذا نظرنا بهذا المنظار إلى حضارة الاسلام في عصرها الذهبي، وجدنا أن هذه الأخلاق السامية جميعها هي ما كان يتسم به بناة هذه الحضارة في عصور ازدهارها، ثم إذا ارتقينا إلى عصر صدر الاسلام وجدنا هناك المثل الأعلى في التحلي بهذه الأخلاق! وفي تاريخ عصر النبوة، وعصر الخلفاء الراشدين أبلغ الشواهد على إثبات هذه الحقيقة الساطعة وهو ما لايختلف فيه اثنان، أو يجادل فيه إنسان.

وثمت حضارات قديمة ووسيطة.. حضارات قضى عليها جميعها بلا شك فساد الأخلاق، بل حتى الحضارة الاسلامية نفسها ما خرجت عن هذا القانون، وإنه من المؤسف أن نقول: إن حضارة المسلمين قضى عليها الفساد الخلقي أيضا، وهو ما كان نتيجة لضعف الروح الدينية، وتفشي الاختلاف والتفرق في أواخر عهود هذه الحضارة، ولكنا لانبعد إذا قلنا إن قسطاً وفيراً من هذا الانحطاط وهذا الفساد في الأخلاق إنما يعود إلى العناصر الدخيلة على المسلمين، أو بعبارة أصح: العناصر الدخيلة على العرب الذين كانوا قبل اختلاطهم بتلك العناصر أقوى ما يكونون من ناحية الأخلاق!

والآن ــ ونحن نعيش في عصر الحضارة الغربية، وهي حضارة حازت أكبر تقدم في كافة ميادين العلم والفن والثقافة والاقتصاد، وهذا طبيعي كنتيجة للنهضة الفكرية الشاملة، وتطور الحياة والزمن ــ الآن ونحن نعيش في عصر حضارة أوربا العلمية والصناعية، وقد شاهدنا كيف أنها بلغت الذروة في أساليبها التنظيمية، وفي مجدها العلمي، بعد أن تم لها أن تحطم الذرة.

الآن ونحن نعيش في عصر أحدث الحضارات ــ كما هو الواقع ــ وأرقاها كما يقولون.. فقد حق لنا أن نتساءل: ما هو نصيب الأخلاق من هذه الحضارة ياترى؟!

إذا أردنا أن نستوحي الاجابة على هذا السؤال من أعمال أساتيذ الجامعات في أوروبا، وأمريكا، ومن سلوك وآداب كبار رجال الفكر فيها ومن غيرهم.. وغيرهم من الأحرار، ودعاة الاصلاح الاجتماعي، والسلام العالمي، وجدنا أن الأخلاق تحتل ــ ولا جدال ــ في هذه الحضارة مكانها الرحيب.!

ولكنا إذا أردنا أن نستوحي نفس هذه الاجابة من سلوك رجال آخرين.. رجال يمثلون الأغلبية الساحقة في المجتمعات الأوروبية والأمريكية، وحسبك أن في مقدمتهم بعض كبار الساسة والزعماء والحكام العسكريين، وكبار أصحاب الشركات ورجال المال والاقتصاد، والكتاب والباحثين ومحرري الصحف، واعضاء البرلمانات وغيرهم من أفراد الطبقات العليا والوسطى.. إذا أردنا أن نستوحي الاجابة على سؤالنا عن أعمال كل هؤلاء، وجدنا ــ مع مزيد من الأسف ــ ان الأخلاق وبالأخص أنواعها التي أشرنا إليها آنفا تكاد تكون مفقودة.. وأحسب أن هذا لم يعد أمرا مبهما أو غامضاً، أو يحتاج إلى طول مراجعة، وطول تفكير!

إن العنصر الأخلاقي مفقود في حضارة اليوم، وهذا ما لم يعد فيه شك، وهذا ما أصبح يشكو منه عقلاء الأوربيين الأمريكيين أنفسهم، ونحن نسأل: أليس هذا الفقدان جديراً بأن يكون في طليعة أسباب الحروب العالمية المتتابعة، وما يراه العالم على الدوام من تلبد الجو، وتوالي الأحداث والخطوب، ووقوع الأمم جميعا فريسة لهذه الحروب وما يتبعها من ذيول؟!

أين العنصر الأخلاقي في هذه الحضارة، وقد أصبح الصدق معدوماً فيها، والوفاء بالعهود ليس له وجود، ومراعاة حقوق الانسان أو مراعاة حقوق الشعوب في اعطائها حرياتها، أصبحت من الأمور المستحيلة.. ومن المخزي ــ ولاسيما وأنه لايتفق مع الأخلاق ــ أن أكثر الشعوب تراعي حقوقها قولا فقط.. وفي وقت الشدائد والأزمات.. حتى إذا جاء وقت الفعل والتنفيد بعد أن تنقشع السحب، ويصفو الجو وتذهب الشدائد ويرتفع كابوس الأزمات.. إذا بكل ما قيل يصبح أسطورة.. وإذا بكل ما وعدت به الشعوب يتبخر مع الريح، كأن لاقيمة للأقوال مطلقاً، ولا قيمة للوعود والعهود مطلقا، ولا قيمة لأي معنى من معاني الأخلاق!

أين العنصر الأخلاقي في حضارة اليوم، وهي لا تزال تئن في نفس مواطنها من جور تحكم الطبقات وطغيان الرأسمالية، ودسائس رجال الأحزاب، وألاعيب السياسيين المحترفين، ولا تنس بعد هذا ما عرف عن هذه الحضارة من إباحتها للاباحية.. واستهتارها بالاستهتار.. إلى آخر ما هنالك مما يجوز ذكره هنا ومالا يجوز..!

وقصة هذه الحضارة مع الشرق معروف أمرها.. إنها قصة الاستعمار بل هي قصة التحكم بالغصب، وإذلال الشرقيين، واستغلال خيرات بلدانهم، ولا تزال هذه القصة إلى الآن على المسرح، ولما ينته فصلها الأخير..!

أين العنصر الأخلاقي من حضارة اليوم، وقد رأى العالم في قضية فلسطين أشنع الأمثلة على التفسخ الأخلاقي «واللامبالاة» بأي حق أو أي انصاف أو أي عرف أو أي قانون؟!

الحق أن حضارة اليوم قد أثبتت فعلا تجردها التام من أهم العناصر الأساسية اللازمة لبناء كل حضارة في الوجود.. إنها حضارة بلا أخلاق.. ولسنا في هذا نتجنى عليها، فهل يعيد التاريخ نفسه، لكي يرى الناس مصيراً لهذه الحضارة شبيهاً بالمصير الذي آلت إليه كل حضارة من هذا النوع قضي عليها أن تنهار بأسباب فقرها إلى العنصر الأخلاقي؟!



التبشير والمبشرون

انظر إلى أي بلد من بلدان العالم الاسلامي الآن، وابحث عن أحوالها مستقصياً متعمقاً، واقرأ في صحفها ومجلاتها ــ ان كان لها صحف أو مجلات ــ واسأل عنها من يتاح لك أن تجتمع به من ابنائها أو من تصادفه من الرحالين والرواد الذين سبق لهم المرور بها وملاحظة احوالها. انظر إلى أي بلدة من هذه البلدان في عهدنا الحاضر تجد أنها منكوبة (مع الأسف) بألوان عديدة من النكبات المحلية،منها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصادي ومنها ما هو اجتماعي ومنها ما هو غير ذلك.. وانظر أيضا تجد أن من ضمن هذه النكبات التي منيت بها وأصبحت تعاني شرورها هذا الشيء الذي يسمونه التبشير.

وهذه الجماعات الكثيرة العاملة بجد ونشاط لامزيد عليهما، والسائرة في طريقها بدأب واجتهاد وثبات فوق ما يتصوره العقل ونعني بها جماعات المبشرين.

التبشير والمبشرون نكبة عظيمة من نكبات العالم الاسلامي في هذا الزمن الأخير ولسنا نقصد بقولنا هذا أن ثمت نجاحا عظيما لقيه التبشير أو يلقاه في أي بلد من البلدان الاسلامية أو أن هناك عملاً كبيرا استطاع أداءه المبشرون أو يستطيعون اداءه ــ لاسمح الله ــ كلا.. لانقصد ذلك ولا نعنيه فان حوادث المبشرين المتوالية وسلسلة فضائحهم التي ظهرت وما فتئت تظهر امام الناس اجمعين،كل ذلك قد اظهر بافصح بيان واسطع برهان أن (خُفَّي حُنين) هما وحدهما نصيب التبشير والمبشرين، كل ذلك قد أثبت جليا أنه من المحال أن يتأثر أحد من المسلمين بأي مؤثر من المؤثرات، أو أن تسيطر عليه أية دعاية سيئة من امثال هذه الدعايات.

ولكن ما نعنيه بقولنا (نكبة التبشير والمبشرين) إنما هو الذي نراه من تقاعس العالم الاسلامي، واستمراره على هذا الموقف السلبي بازاء التبشير والمبشرين ما نعنيه إنما هو هذا الموقف المزري: موقف الجمود والخنوع والاستسلام وعدم الاكتراث بما يعمله هؤلاء المبشرون بين ظهرانيهم من أعمال وما ينشرونه من مختلف الدعايات عن ديننا الاسلامي وما يحاولونه من محاولات مستمرة في سبيل الوصول إلى غاياتهم المعلومة.

للمبشرين جمعيات كثيرة منتشرة في كل بقعة اسلامية تقريبا وللمبشرين مدارس وملاجىء ينشئونها هناك باسم العلم وباسم الثقافة وباسم التهذيب.. ولكن سرعان ما يفتضح أمرها وتظهر حقيقتها للملأ ويتضح للناس أنها إنما انشئت للتبشير وحده وليس للعلم أو للثقافة وللتهذيب.

وللمبشرين عدا ذلك صحف ومجلات ونشرات ولهم كتب يطبعونها و ينشرونها على أنها كتب في اللغة والأدب أو العلم أو التاريخ أو غير ذلك.. ثم لاتحوى بين مضامينها إلا تلك السموم التبشيرية الفتاكة. كل ذلك يقوم به المبشرون ــ و يقومون به على مرآى ومسمع ــ والمسلمون لاهون نائمون لايعملون ولا يتكلمون. كأنهم لايحسون بكل هذه الشرور ولا يشعرون!

ومن هنا ــ ومن هنا فقط ــ يصح لنا أن نقول عن التبشير بأنه نكبة وأي نكبة أجل إننا إذا نظرنا إليه من هذه الناحية وجدناه نكبة حقيقية قد تفوق سواها من النكبات الأخرى، وقد تكون بعض هذه النكبات أو جلها (وقتية) تَزول آثارها بزوال الأسباب التي دعت إليها والظروف التي أحاطت بها. ولكن ياللهول!! إن نكبة التبشير إذا قدر لها ــ لاسمح الله ــ أن تنجح ولو قليلا فلا يمكن أن يقال ان آثار هذا النجاح ستكون ــ شأنها كشأن غيرها ــ من الآثار الوقتية الزائلة.

ان الواجب يقضي بأن يتنبه المسلمون في مشارق الارض ومغاربها إلى هذا الداء العضال ويجتهدوا في أن يستأصلوا شأفته، الواجب يقضي بان ينهض المسلمون و يقفوا بالمرصاد لكل ماهو من هذا القبيل، الواجب يقضي بأن يناوىء المسلمون كل هذه الحركات وكل هذه الدعايات وكل هذه المحاولات يناوئونها بنفس الأسلحة و يرسمون لهذه المناوأة عين الخطة التي رسمها المبشرون، فبالمدارس والملاجىء الاسلامية يكثر المسلمون من انشائها في بلادهم ويمنعون ابناءهم من الدخول في سواها، و بالمجلات والصحف وسائر أنواع المطبوعات يستطيع المسلمون ــ اذا احسنوا الانتفاع من كل ذلك ــ أن يقضوا القضاء النهائى على هذا الشر المستطير وفي الوقت نفسه يكون كل ما ذكر كدعاية عظيمة حسنة لها آثارها، ولها نتائجها وفوائدها للاسلام والمسلمين ولمستقبل الاسلام ومستقبل المسلمين.

إن الخطر من التبشير والمبشرين عظيم جداً، اذا ما ترك وشأنه وقوبل بمثل هذا الاهمال وعدم الاكتراث فليكن العمل عظيما جدا أيضا في سبيل التصدي له ومناوأته والقضاء عليه(١).



(١) جريدة صوت الحجاز، العدد ٦٤/ ١٣٥٢/٣/١١هـ

عن الغزو الفكري

موضوع الغزو الفكري للبلاد العربية ليس موضوعا جديداً يحتاج إلى بيان! إنه موضوع قديم تصدى له كبار المفكرين الاسلاميين منذ بدأت آثاره تظهر للعيان في مختلف أرجاء الوطن الاسلامي وخاصة في بلدانهم التي منيت باستعمار الغرب منذ ما يقرب من مائتي عام. وما يزال المفكرون إلى اليوم يتناولون هذا الموضوع سواء عن طريق ما يخرجونه من الكتب أو عن طريق محاضراتهم ومقالاتهم و بحوثهم في الصحف والمجلات.

وها نحن نرى صحيفة «البلاد» تتابع هذه الأيام مشكورةً نشر آراء كبار الباحثين حول هذا الموضوع. والحق أن ما قرأناه حتى الآن في صحيفة البلاد قد أحاط بالموضوع كل الاحاطة فهؤلاء السادة الأفاضل وهم نخبة العلماء والكتاب في بلادنا لم يدعوا مقالاً لقائل. لقد استوفوا موضوع الغزو الفكري كل الاستيفاء وتطرقوا لمسائله من كافة نواحيه.

والواقع أن الغزو الفكري الاستعماري لبلاد المسلمين هو من أخطر الأسلحة في محاربة الاسلام والمسلمين.

لقد تنبه ساسة الاستعمار ودهاقينه وفلاسفته منذ أول يوم تمكنوا فيه من استيلائهم على اقطار العالم الاسلامي ــتنبهوا إلى هذه الحقيقةــ وهي أن استعمارهم السياسي والعسكري لتلك الأقطار لن يمكن أن يحقق لهم غرضهم البعيد وهو القضاء نهائيا على الاسلام ما لم يعملوا بكل الوسائل الممكنة لاقصاء المسلمين عن دينهم، عن عقيدتهم وشريعتهم وثقافتهم، و بذلك يضمنون لأنفسهم الابقاء على سيطرتهم ونفوذهم في البلاد الاسلامية حتى ولو زال عنها استعمارهم العسكري.

وفي هذا السبيل صنعوا الأعاجيب. وكان أول ما تمخضت عنه سياستهم هذه هو إلغاء الاحكام الشرعية في المحاكم وابدال القوانين الوضعية بها.

الشيء الثاني وهو لايقل خطورةً عن الأول: إفسادهم للتعليم بما غيروا و بدلوا فيه من برامج وأساليب،واهم نقطة في هذا التغير والتبديل انهم جعلوا التعليم العام «علمانيا» أي (لادينيا) و بذلك نفذوا أهم الأهداف لسياسة الغزو. وهي العمل المستمر الدائب على تنشئة الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين على منهج جديد: منهج غربي بحت ليس فيه من معنى الاسلام سوى الاسم و بذلك استطاعوا أن يجعلوا الكثيرين من هؤلاء المتخرجين من مدارسهم مؤمنين بهم..

مقلدين لهم.. ومنهم مع الأسف من استمرأوا أن يكونوا أتباعا للمستعمرين.. ثم هناك أشياء أخرى كثيرة معروفة.. جلبها الاستعمار ضمن منهاجه في الغزو مما كانت نتيجته هذا الذي نشهده اليوم في اكثر البلاد الاسلامية من مظاهر الضعف والتخلف في كل ميدان.. ثم هذا الذي نلاحظه من انحراف الشباب إلا من رحم ربك.. واخيراً وليس آخراً: هذا الذي نراه الآن من ترويج لمذاهب مستوردة هدامة.. ومن دعوة للجنس وتركيز على الاختلاط إلى آخر ما هناك مما لايحتاج إلى اشارة.. واستطاع الاستعمار ان يجعل من جميع وسائل الاعلام ادوات فعالة يستخدمها في التأثير على عقول الناس واستطاع أن يجعل من عملائه الكثيرين منفذين ناجحين لمخططه الرهيب.

ومن المعروف ان للصهيونية العالمية في هذا المجال: مجال الغزو الفكري الاستعماري دورها الكبير وليس عجيبا أن يكون لليهود دورهم التخريبي في هذا المجال وهم الذين أخذوا على أنفسهم منذ عهودهم الطويلة أن ينشروا الفساد في الارض.

ولا أنسى أن أخص التبشير بالذكر هنا: وما تبذله دوائر الاستعمار في الغرب من أموال طائلة تفوق الحصر لا من أجل نشر المسيحية فقط كما يزعمون، وانما من أجل إبعاد المسلمين عن عقيدتهم في المقام الأول اذا استعصى عليهم أن يحيلوهم إلى نصارى.

وفي هذا يقول كبير المبشرين «زويمر»: «ليس غرض التبشير إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين.. إن المسلم لايمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً.. ولكن الغاية هي إخراج المسلم من الاسلام فقط.

ولا أنسى أيضا دوائر الاستشراق وما اخذته على عاتقها من تشويه دنيء لمحاسن الاسلام ومن تعريضهم بالرسول صلوات الله وسلامه عليه ومن تحريفاتهم للمعاني القرآنية بطرق ملتوية، ان قلنا انها تدل على الفهم السقيم.. فهي من غير شك تدل أكثر.. على سوء النية وعلى رغبة متعمدة في التشويه لمجرد التشويه. وكم أدخلوا من شبهات على الاسلام، وكم اذاعوا من ترهات وسفسطات رد عليها ودحضها بأوضح أسلوب كتابنا الاسلاميون، والكثيرون منا يذكرون في هذا الصدد ما كتبه الامام محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي، ثم سيد قطب ومحمد قطب والمودودي والندوي.

وهؤلاء المستشرقون والمبشرون حينما نراهم يتعرضون للقرآن الكريم في محاولة منهم فاشلة لاضعاف أثره المضيء في النفوس فهم إنما يفعلون ذلك لأنهم يرون القرآن هو كل شيء في حياة المسلمين: عنه يصدرون وإليه يثوبون ومنه يستمدون الهدى، وعلى أساس من شريعته الوهاجة يقيمون بناء حياتهم سواء في مجال العقيدة أو مجال الحكم أو مجالات العلاقات الاجتماعية أو مجال الأخلاق.

ولم ينكر المستعمرون موقفهم العدائي الحاقد هذا من القرآن.. فهذا واحد منهم وهو «غلادستون» رئيس وزراء بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر يقول بكل تبجح وهو يحمل في يده المصحف أمام أعضاء مجلس العموم: «ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض فلا أمل في اخضاع المسلمين».

وهذه كلمة حق.. لاشك في ذلك قالها هذا الاستعماري الشهير.. بالرغم من أنه قالها بدافع من حقده الصليبي الدفين ولغرض سيء هو الحث على المزيد من التحدي والمزيد من محاربة الاسلام ومحاربة القرآن.. تنفيذاً لبرنامج الغزو الاستعماري الفكري.

هذه هي أهم الوسائل التي ما فتىء الاستعمار يمارسها إلى اليوم في ميدان تحديه للاسلام.. والعلاج لم يعد خافيا بعد أن بحثه علماؤنا وكتابنا.. العلاج معروف وهو وجوب مقاومة هذا الغزو بكل الطرق والوسائل الايجابية الفعالة دون هوادة ودون توان.

وليس من شك في أن أول ما يجب الاهتمام به هو قضية التعليم واعادة بنائه من جديد على أساس من التربية الاسلامية.

وهذا عمل كبير يحتاج إلى جهود وإلى زمن ويحتاج قبل كل شيء، إلى أن يتوحد حوله الرأي في جميع البلاد الاسلامية، فما لم يتفق على ذلك كل المسلمين وكل حكوماتهم ثم يخرجوه من حيز القول إلى حيز العمل والتطبيق بكل عزم و بكل صدق واخلاص.. فسوف تبقى المشكلة قائمة لزمن اطول وهذا هو ما نخشاه.

ولعله مما يدعو إلى الأمل أن نرى الندوات أخذت تتابع انعقادها من اجل هذا الغرض وهي تضم النخبة من الرجال المصلحين وغيرهم من خبراء التربية والتعليم في مختلف العواصم الاسلامية.

وقد كانت آخر ندوة اسلامية عقدت في المدينة المنورة في شهر شوال ١٣٩٢ هـ

ومن الحق أن نقول إن ما توصلت إليه هذه الندوة من نتائج وقرارات يبشر بكل خير. كما كانت ندوة الشباب العالمية للدعوة الاسلامية التي انعقدت في الرياض بدعوة من وزارة المعارف بتوجيه من جلالة الملك فيصل خطوة بناءة اخرى في هذا السبيل.

ولن أطيل في هذا الموضوع ولن أتعرض لباقي الأمور من كل ماله علاقة بقضية الغزو الفكري و يعرفه الجميع واشرت إلى بعضه آنفا. لن أطيل في ذلك لاني أؤمن أشد الايمان بأن حجر الأساس فيما يحاوله المسلمون الآن من مقاومة لهذا الغزو انما هو اصلاح التربية والتعليم أولا وقبل كل شيء.. والعودة بهما إلى المنهج الاسلامي.

ولا اعني بذلك اهمال الأمور الأخرى وانما أعني أن نولي عنايتنا أكثر بالتربية والتعليم فالتربية والتعليم هما الأساس ومتى صلح الأساس وبدأ قوياً كان ضمان النجاح لمسيرتنا كلها في هذا الطريق مؤكدا باذن الله[1].



---

(١) عدد البلاد الأسبوعي ٢ ذي الحجة ١٣٩٢هـ

برناردشو .. ورأيه في الاسلام

أكتبُ كتَّاب الانجليز في العصر الحاضر وزعيم الأدب الساخر باجماع الناقدين،نزعته الاشتراكية صبغت معظم كتاباته بأعنف ما عرف من الحملات القلمية على النزعة الفردية أو النزعة الرأسمالية.

صراحته البالغة حد التطرف واعتداده بالذات وولعه الدائم بالمفارقات كل هذه عوامل كان من شأنها أن تطبع آثاره الأدبية بطابع خاص يمتاز في مقدمة ما يمتاز به بالرأي الطليق يرسله إرسالا في بساطة وارتجال وفي أسلوب من أساليب الفكاهة المرة أو السخرية اللاذعة. هذا إلى تفاؤل عجيب عرف به هذا الكاتب الساخر يتسامى به كل التسامي عن نزعات المتشائمين.

فهو يقول عن المتشائم: «إنه رجل يعتقد أن الناس خبثاء مثله ويمقتهم من أجل ذلك».

ومن أشهر ما عرف الناس به «شو» أنه خصم لدود في عالم الأدب لمذهب «الفن للفن» المذهب الأدبي المعروف المذهب الذي خفت صوته اليوم أمام تيارات الأدب الجديدة التي تكاد تجمع كلها على وجوب أن يكون الاصلاح من غايات الفنون!

والحق أن برناردشو – كما كان تولستوى من قبله – من أكبر زعماء هذه النظرية نظرية أن يكون الفن واقعيا. متصلاً بالحياة.. ومتفقاً مع الأخلاق.. وبالتالي أن تكون له غايات إصلاحية واهداف اجتماعية تسير مع التقدم الانساني سواء بسواء.

وفي سبيل دفاعه عن هذه الفكرة لم يتردد في أن يحمل في صراحته الساخرة المعهودة على من يعتبره الانجليز أكبر شعرائهم على الاطلاق.. أجل على شكسبير الذي يفاخرون به العالم، شكسبير الذي قال عنه كارليل في القرن التاسع عشر انهم يختارونه على الهند فيما لو سئلوا أن يختاروا بين الاثنين.

شكسبير ذو الروائع الخالدة يحمل عليه برناردشو بأقسى ما عرف عنه من الشدة والعنف وهو في حملته هذه إنما يحمل في الصميم على نظرية (الفن للفن) التي كان شكسبير علماً من أعلامها.

إن كتابات «شو» رغماً عن اسلوبها الفكه وعما يبدو فيها من المفارقات تدل على معرفة اصيلة بطبائع الناس وروح الاجتماع ونفسية الجماهير.

فهو يقول في كيفية معاملة الناس: «لا تعمل لغيرك ما يجب أن يعمل لك فربما اختلفت الأذواق».

و يقول في معنى آخر «لايحفظ سر بين الناس كالسر الذي يستطيع جميع الناس أن يخمنوه».

و يقول: «ليس بلاء الكاذب أن أحداً من الناس لايصدقه.. وإنما بلاؤه أنه لايصدق احداً من الناس».

و يقول ــ وما أعمق ما يقول:«كلما زاد عدد الأمور التي يخجل منها الانسان، زاد نصيبه من الاحترام».

و يقول: «الرجل المعقول يوفق بين نفسه و بين العالم.. والرجل غير المعقول يحاول أن يوفق بين العالم و بين نفسه.. ومن ثم كان كل تقدم في هذا مرهوناً بغير المعقولين».

ولعل من أبلغ أقواله التي تشير إلى ما يجب على الفرد أن يؤديه نحو غيره من الافراد أو نحو المجتمع الذي يعيش فيه حتى يمكن أن يكون جديراً بما يناله من سعادة هو هذا القول: «لاحق لنا في استهلاك السعادة بغير انتاجها، الا كحقنا في استهلاك الثروة بغير انتاج».

هذا هو برناردشو اكتب الكاتبين في العصر الحديث، وامام السخرية والساخرين والذي احتفلت بلاده به بل احتفلت به اوروبا جميعها بمناسبة بلوغه سن التسعين. ومن واجبنا أن نشير هنا ــ وهو ما دعانا إلى كتابة هذا الفصل ــ إلى ما أذاعه هذا الكاتب في وقت من الأوقات عن رأيه في الاسلام وهو رأي عميق يدل على بعد نظر وعدم ميل إلى التحيز. وليس لهذا الرأي اهميته لأنه يشهد للاسلام بمزايا جديدة أو غير معروفة وانما أهميته لصدوره من كاتب أوربي يساري متطرف جريء لايبالي المعارضة، مهما كانت عنيفة، في سبيل اعلان ما يعتقده من رأي، ومتى عرفنا أنه كان خارجاً على اجماع امته في الحربين العالميتين لانه كان ينادي بعدم الدخول في الحرب عرفنا وجه الأهمية في كل ما يقول و بالتالي عرفنا أن رأيه في الاسلام، إنما هو من وحي تفكيره الخالص، وليس هو من وحي السياسة وهي كثيرا ما توحي الى أكابر الكتاب هناك بأن يذيعوا للناس أمثال هذه الآراء تخديراً للاعصاب وتضليلاً للافهام، للوصول إلى تحقيق ما يريده الاستعمار من أقصر طريق.

والآن هذا ما يقوله عن الاسلام هذا الكتاب الكبير: «لقد وضعت دائماً دين محمد صلى الله عليه وسلم موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته المدهشة فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل من الناس».

«لامشاحة في أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا غداً. وقد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم.. وقد صور رجال اكليروس القرون الوسطى الاسلام بأحلك الألوان إما بسبب الجهل وإما بسبب التعصب الذميم».

«ولقد ادرك في العهد الأخير مفكرون مخلصون أمثال كارليل وجوته وجيبون، القيمة الذاتية لهذا الدين المحمدي وهكذا وجد تحول حسن في موقف أوربا من الاسلام.. ولكن أوربا في القرن الراهن تقدمت في هذا السبيل كثيراً فبدأت تعشق عقيدة محمد وفي القرن التالي ربما تذهب إلى أبعد من ذلك.. فتعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها».

إلى أن يقول: «بهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي وفي الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومي ومن أهل أوربا قد دخلوا في دين محمد. حتى ليمكن القول إن تحول أوربا إلى الاسلام قد بدأ»(١).



(١) البلاد السعودية العدد ٧١٣ في ١٣٦٧/٦/١٩هـ

دور المسلمين في بناء المدنية الغربية

ربما يأخذ العجب مأخذه لدى بعض القارئين حينما يرون أن من بين الباحثين ــ هنا وهناك ــ من يؤلفون الكتب، و يضعون الرسائل يتحدثون فيها عن حضارة الاسلام في عهد ازدهارها و بالتالي يتحدثون عن الدور الذي قام به المسلمون في بناء المدنية الغربية!

وقد يتساءل هذا البعض: أصحيح أن المسلمين لهم دورهم في بناء هذه المدنية؟

والواقع أن الكثرة من أبناء العروبة والاسلام ــ كما يبدو ــ ليسوا على المام مع الاسف بحقيقة تاريخهم.. أو بحقيقة حضارتهم الاسلامية، فضلا عما كان لهذه الحضارة من دور ملحوظ ــ لاينكره الغربيون أنفسهم ــ في بناء مدنيتهم!

فلا بدع أن نحس بالكثير من الغبطة اذ نقرأ هذه الرسالة الوجيزة للباحث المفكر المسلم الاستاذ «حيدر بامات» يحدثنا فيها عن منجزات الحضارة الاسلامية وأثرها في مدنية اليوم.

ونحن ــ بلاشك ــ نغتبط أكثر عندما نقرأ قولا لباحث عربي مسيحي يشهد به للعرب المسلمين بأنه لم يساهم شعب من شعوب الأرض بقدرما ساهموا في التقدم البشري.

انها شهادة «دكتور فيليب حتى» يوردها كاتب هذه الرسالة الاستاذ «بامات» و يعقب عليها بقوله: بأنه لكي نحصل على صورة واضحة للحضارة الاسلامية، لابد لنا من أن نذكر أن هذه الحضارة لم يصنعها العرب وحدهم.. فلقد كانت هذه الحضارة، وستظل ابدا ثمرة جهود شعوب كثيرة، متباينة الأجناس واللغات، ولكن الاسلام قد صاغها في وحدة روحية، وخلق منها مجتمعا يحلق فوق حدود روحية، وخلق منها مجتمعا يحلق فوق حدود القوميات!

وليس من شك في أن هذا هو واقع حضارتنا الاسلامية.

وكما أن «الوحدة الروحية» ــ كما يقول الكاتب ــ انما ترد إلى الاسلام.. الذي يقوم على التوحيد المطلق، والذي اشتقت منه قوانين «المدنية المسلمة» والذي ينظم حياة المؤمنين العامة والخاصة. فكذلك هذه الوحدة الروحية. مدينة بالكثير إلى سحر اللغة العربية وروعتها.

بل اننا لنرى الكاتب يمضي يتحدث عن اللغة العربية في عبارات تنم عن شديد اعجابه بها منوها بالدور التكويني الحاسم الذي لعبته اللغة العربية في خلق الفرد المسلم الذي نشأ في بوتقة الاسلام.. هذه اللغة الرائعة ذات الاعجاز العجيب، والجزالة المثيرة.. والتي ظلت مئات

السنين كاللاتينية في العالم المسيحي خلال القرون الوسطى، لغة التخاطب بين جميع الشعوب الاسلامية، فوق أنها لغة العلوم والآداب.

أما كلمة الصلاة ــيقول بامات ــ فقد تركت العربية اثرا عميقا في جميع لغات الفئات التي يتكون منها المجتمع الاسلامي!

و يقول أيضا: وقد بلغ تفوقها على غيرها من اللغات في الوقت الذي بلغت فيه الحضارة الاسلامية قمتها حدا يجعلنا نوافق «فيليب حتى» على ما ذهب إليه من أن كل فرد في الامبراطورية الاسلامية اعتنق الاسلام وتكلم بالعربية. كان ينظر اليه على أنه عربي.

والطريف أن هذا الذي يقوله «بامات» عن رأي (فيليب حتى) نجد أكثر الباحثين اليوم يكادون يتفقون في توكيده.. عندما يقولون في تعريفهم للعربي بأنه: كل فرد اختار العروبة وتكلم بالعربية

ومن رأى «بامات» أن الخلفاء الأمويين كانوا أول من عمل على تطوير الحضارة الاسلامية.

على أن حكم الأمويين ــكما يقرر ــ لم يكن في حقيقته سوى مرحلة نحو النضوج بالنسبة للحضارة الاسلامية.. ولكن هذه الحضارة بلغت أوجها ــمن غير منازع ــ في عهد الخلفاء العباسيين في بغداد (٧٥٠ــ ١٢٥٨م)، وفي عهد الامويين في الاندلس (٧٥٥ــ١٤٩٢م)وإلى هذا يشير «غوستاف لوبون» حين يقول:(في الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في أظلم عصور الهمجية كانت بغداد وقرطبة ــوهما المدينتان اللتان سيطر عليهما حكم الاسلام ــ مركزي الحضارة البشرية تشعان على العالم كله بوهج العلوم والفنون).

و يري «بامات» كذلك أن تأسيس بيت الحكمة في بغداد في عصر الخليفة المأمون (٨١٣ــ ٨٣٣م) كان من أبرز الحوادث في العصور الوسطى.. ويمضي إلى أن يقول: كانت دار الحكمة بمثابة حجر الزاوية في تكوين مدرسة بغداد التي قيض لها أن تفرض تأثيرها حتى نهاية النصف الثاني من القرن الخامس عشر.. وإلى هذه المدرسة يرجع الفضل في تأمين استمرار الحضارة بوصل ما انقطع من سلسلة المعرفة الانسانية بسبب انحطاط وسقوط روما في القرن السادس.

و يواصل الكاتب حديثه عن دار الحكمة وأثرها في انقاذ المعارف القديمة والحفاظ عليها.. ثم عن أثرها بما احدثته من اضافات جديدة مبتكرة في جميع فروع العلم، وكذلك باكتشافات لاحصر لها في مجال العلوم التطبيقية.. إلى أن يقف بنا عند النقطة الرئيسية من الحديث وهي البحث عن كيفية انتقال الحضارة الاسلامية إلى الغرب.. وهنا يتساءل: متى وصلت الحضارة الاسلامية إلى اوروبا؟ وما الطرق التي سلكتها؟

هل الصليبيون هم أول من قاموا باحداث التبادل الثقافي بين الشرق والغرب.. كما هو الوهم الشائع؟ من الجدير بالنظر أن الكاتب يدحض هذا الوهم بأدلة لا تقبل النقض.. ونرى أن من أخطر أدلته التي يذكرها، هو أن الحروب الصليبية أوجدت هوة واسعة بين الشرق والغرب ووضعت حدا لأي تعاون بين العالمين لاجيال طويلة باثارتها المسيحية ضد الاسلام في حرب لا هوادة فيها.

وعلى النقيض من ذلك فان الغرب ـ يقول الكاتب ـ يدين بالكثير للشرق في حقل الحضارة المادية.

ويقول: لقد وجد عدد كبير من الصليبيين أنفسهم وجها لوجه أمام حضارة تفوق حضارتهم، كما وجدوا في الشرق أشياء كثيرة جديدة كل الجدة عليهم، وكذلك أساليب فنية ـ تقنية ـ كانت لا تزال مجهولة في الغرب.. فادخال المنتوجات الشرقية إلى الأسواق الأوربية على نطاق واسع، وتبني الأساليب التقنية في الزراعة والصناعة والاعمال اليدوية كانت من النتائج الباهرة للحروب الصليبية.

أما في مجال الفكر.. فنرى الكاتب وهو يتحدث عن تسرب الحضارة إلى أوروبا عن طرق اسبانيا وصقلية وجنوب فرنسا اللواتي كن تحت الحكم الاسلامي المباشر، يذكر لنا كيف أن الحضارة الاسلامية ـ منذ انتهاء القسم الأول من القرن التاسع الميلادي ـ قد سادت جميع اسبانيا، واعتبر الاسبانيون اللغة العربية الوسيلة الوحيدة للتعبير في مجالي العلم والأدب.. إلى أن يقول: وقد انتشرت شهرة العرب العلمية حتى طبقت الآفاق، وجذبت اهتمام النخبة المستنيرة في الغرب إلى الاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا.. وانه لمما يدعو إلى التأمل حقا أن نجد أحد كبار البابوات «سلفستر الثاني» يقضي ثلاث سنوات في طليطلة يدرس على العلماء المسلمين الرياضيات والفلك والكيمياء وموضوعات أخرى.. وأن نجد كثيرا من كبار رجال الدين والعلم من فرنسا وانكلترا وألمانيا وايطاليا، درسوا فترات مختلفة في جامعات اسبانيا الاسلامية.

مساهمة الاسلام في الحضارة الانسانية:

وفي هذا القسم من الرسالة.. يتابع (بامات) حديثه الممتع عن دور الاسلام الحضاري.. ولكنه يضطر إلى الاقتضاب وهو يشيد ـ في ايجاز ـ ببعض الاكتشافات المهمة التي ندين بها لعبقرية البحث الاسلامي ـ كما يعبر ـ وان كان لايفوته أن يذكر لنا أسماء بعض العلماء والفلاسفة والكتاب.. الذين أغنوا العلوم والآداب وكان لهم أثر ملحوظ في الفكر الغربي.

فأول ما لفت أنظار العلماء المسلمين من العلوم: الفلك والرياضيات، وقد أحب العرب

الرياضيات أكثر من العلوم الأخرى، اذ اكتشف العلماء المسلمون الكثير من المبادىء الاساسية للحساب والجبر والهندسة.. ففي الجبر لا تزال تستعمل الاعداد وطريقة العد التي اخترعها العرب.. والجبر نفسه يعزى اختراعه أحيانا إلى العرب، ومن أساطين هذا العلم «محمود بن موسى الخوارزمي» صاحب كتاب (الجبر والمقابلة) والذي كان المأمون عينه أول رئيس لبيت الحكمة، و يصفه (فيليب حتى) بأنه كان يمتلك أفضل عقلية علمية وأنه بلا شك الرجل الذي مارس أكبر قسط من التأثير على الفكر الرياضي خلال العصور الوسطى بأسرها.

و بالاضافة إلى اهتمام المسلمين بالفلك والرياضيات.. كان اهتمامهم عظيما بالعلوم الأخرى، ومن هذه العلوم: الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية والطب والفلسفة والأدب والجغرافيا والتاريخ والعلوم السياسية وعلم الاجتماع والهندسة المعمارية والفنون التشكيلية والموسيقى.

غير أن الطب —كما يقرر الكاتب هنا— كان أعظم علم أثار اهتمام المسلمين بعد الرياضيات والكيمياء.. فخلال القرون الاولى التي تلت الهجرة أصبح الطب جزءا لايتجزأ من الثقافة الشاملة،ومن ثم ظهر ذلك العدد الكبير من الاطباء والمؤلفات الطبية.. وقد لعب الاطباء المسلمون دورا حاسما في العلوم الطبية لدى الغرب اذ ظلت مؤلفات الرازي وابن سينا وابي القيس وابن زهر، أساس الدراسات الطبية في الجامعات الأدبية خلال قرون عديدة، واكتسبت مدرستا الطب في «سالرنو» و«مونبلييه» شهرة واسعة في هذا الصدد.. وتعتبر مجموعة المعلومات الطبية التي نشرها الرازي في مؤلفه «الحاوي» وفي كتابه الآخر المسمى (المنصوري) الذي نسبه إلى الأمير منصور الساساني، أوسع وأشهر المؤلفات الطبية.

وكان ابن سينا بلا شك أعظم طبيب ظهر في تاريخ المسلمين، وقد نشر كتابه «القانون في الطب» بالعربية في روما سنة ١٥٩٣م واستعمل هذا الكتاب كأساس لتدريس علم الطب في الجامعات الفرنسية والايطالية بأسرها طيلة ستة قرون كاملة.. من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر.. وعدا ذلك فقد ألف ابن سينا كتابا حول علاجات القلب.. ونظم قصائد في الطب، وتضم دراساته للعلاجات الطبية وتحضيرها ٧٦٠ علاجا.

واعظم تقدم قام به الاطباء المسلمون كان في حقل الجراحة.. كما عرفوا التخدير الطبي الذي يعتبر بصورة عامة اكتشافا حديثا،وأهم جراح عربي في هذا الصدد هو «أبو القاسم خلف ابن عباس القرطبي» المتوفى سنة ١١٠٧م وكانت مؤلفاته المصدر العام لجميع الجراحين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر— كما يقول ذلك العالم الفزيولوجي هاللر— وقد طبعت كتبه باللاتينية سنة ١٤٩٧م.

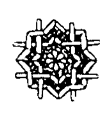
وانجبت أسبانيا الاسلامية أطباء آخرين ذوى شهرة عظيمة من بينهم «ابن زهر» الاشبيلي و(ابن رشد) الذي كسفت شهرته كشارح لفلسفة ارسطو مزاياه كطبيب.

وكما كان للعرب والمسلمين جهودهم الجبارة في الفلك والرياضيات والطب كانت لهم جهودهم المثمرة في كل من الفلسفة والأدب والجغرافيا والتاريخ والعلوم السياسية وعلم الاجتماع ـ على نحو ما عرضنا له ـ وهذا هو الاستاذ «بامات» نراه وهو يذكر لنا بعض الأسماء البارزة في مجالات هذه العلوم يذكر لنا أول ما يذكر «ابن خلدون» أول من وضع فلسفة للتاريخ و يستشهد بما يقوله عنه كاتب غربي اسمه «رايسلر» انه أعظم مؤرخ انتجه الاسلام، ومن اعظم المؤرخين في العصور كلها.

وهكذا يتنقل الكاتب المفكر المسلم الاستاذ «بامات» واضع هذه الرسالة الشيقة عن الدور الحضاري للاسلام.. وعن دور المسلمين في بناء الحضارة الغربية انه يعرض لنا ألوانا ناصعة عن تلك الحضارة تشهد لبناتها بالعبقرية والتفوق.. وتثبت بحق ما لتلك الحضارة وما لاصحابها العرب والمسلمين من جليل الأثر في كيان هذه الحضارة العظيمة التي نعاصرها الآن.

و بعد:

فهذا عرض سريع لرسالة فيلسوفنا المسلم «حيدر بامات» لعلها تكفي ـ إلى جانب عرضها الموجز للموضوع ـ بالتعريف بناحية نضالية لرجل يحفزه إلى هذا الانتاج ايمان عميق.. انه رجل كما يقول عنه الاستاذ سعيد رمضان في تقديمه لهذه الرسالة ـ قضى أكثر حياته مشردا عن وطنه في سبيل عقيدته ولم يزل منذ اتخذ مهجره في باريس يعيش أيامه ولياليه بقلب يحترق أسى وقلقا على الاسلام والمسلمين في شتى أوطانهم ومهاجرهم وفي حاضرهم وما يضمره الغيب المليء لمستقبلهم لايزيده السن الكبير إلا رسوخا في الايمان وشبابا في الهمة والأمل ووعيا يلاحق به الأحداث و يكتب و يراسل باذلا عصارة النفس وخالص النصح من مهجره بباريس.



لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟

سؤال ما من شك في أنه يتردد منذ عشرات السنين بين الناس؟ ويجول في خواطر كل الواعين والمفكرين.

ومنذ أكثر من نصف قرن وجه أحد الشبان هذا السؤال إلى أحد رجالات الاسلام، إلى أمير البيان شكيب ارسلان.

وجهه إليه على صفحات مجلة (المنار) أشهر مجلة في عهدها وإلى الآن.

ولم يتردد الأمير الباحث المؤرخ في الرد، فكان رده آية في البيان، وفي نصوع البرهان.

وقد نشرت الرد مجلة (المنار) بطبيعة الحال، ثم رأى السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار —يرحمه الله— أن يطبع هذا الرد في كتاب ليظل مقروءا على مر الأيام، وتوالي الأعوام، ويتدارسه الشباب المسلم المثقف في كل زمان ومكان.

وكانت خلاصة السؤال هكذا:

ما أسباب ما صار إليه المسلمون من الضعف والانحطاط في الأمور الدنيوية والدينية معاً.. وصرنا اذلاء لا حول لنا ولا قوة وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين».

فأين عزة المؤمنين الآن؟ وهل يصح لمؤمن أن يدعي أنه عزيز، وإن كان ذليلا مهانا، ليس عنده شيء من أسباب العزة.. إلا لأن الله تعالى قال: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»؟

ثانيا: ما الأسباب التي ارتقى بها الأوربيون والأمريكيون واليابانيون ارتقاء هائلاً؟ وهل يمكن أن يصير المسلمون أمثالهم في هذا الارتقاء إذا اتبعوهم في اسبابه مع المحافظة على دينهم الاسلام أم لا؟

وعلى عادة الأمير شكيب أرسلان في بسط الحقائق، وتسجيل الوقائع، وفي الالمام بكل ما يمت إلى الموضوع بصلة، وفي دعم كل أبحاثه بالبراهين أجاب على هذا السؤال، وبدأه بقوله:

إن الانحطاط والضعف اللذين عليهما المسلمون شيء عام في المشارق والمغارب لم ينحصر في مكان، إن حالة المسلمين الحاضرة لا ترضي أشد الناس تحمسا للاسلام، إن حالتهم الحاضرة

لا ترضي من جهة الدين، ولا من جهة الدنيا، ولا من جهة المادة، ولا من جهة المعنى، وانك لتجد المسلمين في البلاد التي يساكنهم فيها غيرهم متأخرين متأخرين عن هؤلاء الأغيار لا يأمنونهم في شيء إلا ما ندر.

إلى أن يقول:

فبعد أن نقرر هذا.. وجب أن نبحث في الأسباب التي أوجدت هذا التقهقر في العالم الاسلامي بعد أن كان منذ الف سنة هو الصدر المقدم، وهو السيد المرهوب المطاع بين الأمم شرقاً وغرباً.

وقبل أن يمضي الأمير شكيب في بحثه عن أسباب هذا التقهقر الذي يشير إليه، يحرص على أن يمهد بالبحث عن الأسباب التي بها ارتقى المسلمون في عهود ارتقائهم فيقول ونحن نلخص ما يقوله في هذا الصدد:

إن أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الاسلامية، فعندما دانت قبائل العرب بديانة الاسلام تحولوا بها من الفرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد، وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن، ولولا الخلاف الذي عاد فدب بينهم لكانوا اكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف!

على أن تلك الفتوحات التي فتحوها في نصف قرن، أو ثلثي قرن قد ادهشت عقول العقلاء والمؤرخين والمفكرين، وحيرت الفاتحين الكبار، واذهلت نابليون أعظمهم، وله تصريح في ذلك.

فما السبب الذي به استطاع المسلمون في العصر الأول أن يحققوا كل هذه الفتوح؟ هكذا يتساءل الأمير شكيب، ثم يقول: يجب علينا أن نبحث هذا السبب، هل هو باق في العرب، أم ارتفع من بينهم، ولم يبق من الايمان إلا اسمه، ومن الاسلام إلا رسمه، ومن القرآن إلا الترنم به، دون العمل بأوامره ونواهيه إلى غير ذلك؟

إذا فحصنا عن ذلك وجدنا أن السبب الذي به استقام هذا الأمر قد أصبح مفقودا، بلا نزاع، وإن كان بقى منه شيء فكما في الوشم في ظاهر اليد.

فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول: أين عزة المؤمنين من قوله تعالى: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين».

ولكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا، فالله غير مخلف وعده، والقرآن لم يتغير، وإنما

المسلمون هم الذين تغيروا، والله تعالى أنذر بهذا فقال: «إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فلما كان المسلمون قد غيروا ما بأنفسهم كان من العجب أن لايغير الله ما بهم.

كيف نرى في أمة ينصرها الله دون عمل؟

كلا. هذا مخالف لماوعد به الله مخالف للعقل والمنطق.

وفي المقابلة بين حالة المسلمين وحالة الأفرنج اليوم يقول الأمير شكيب:

اليوم فقد المسلمون أكثر هذه الحماسة التي كانت عند آبائهم، وقد تخلق بها أعداء الاسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها. فنجد أجنادهم تتوارد على حياض المنايا سباقاً، وتتلقى الأسنة والحراب عناقاً، ولقد كان مبلغ مفاداتهم بالنفائس، وتضحيتهم بالنفوس في الحرب العامة الأولى فوق تصور عقول البشر، كما يعلم ذلك كل أحد، فالألمان فقدوا نحو مليوني قتيل، والفرنسيون فقدوا مليوناً واربعمائة ألف قتيل.. والانكليز فقدوا ستمائة الف قتيل.. هذا من جهة النفوس، أما من جهة المال فانكلترا بذلت سبعة مليارات من الذهب، وسبعة الآف مليون جنيه، فليقل لي قائل أية أمة مسلمة اليوم تقدم على ما اقدم عليه هؤلاء النصارى من بيع النفوس وانفاق الأموال دون حساب في سبيل أوطانهم ودولهم حتى نعجب لماذا آتاهم الله هذه المنعة والعظمة والثروة، وحرم المسلمون ــبضم الحاء» اقل جزء منها؟

ويمضي الأمير شكيب في التركيز حول هذه النقطة، في أكثر من ثلاثين صفحة من الكتاب، ثم يأخذ بعد ذلك في بحث أهم الأسباب في تأخر المسلمين فيقول:

من أعظم هذه الأسباب: «الجهل» ومن أعظمها: «العلم الناقص» الذي هو أشد خطراً من الجهل البسيط.

ومن أعظمها: «فساد الأخلاق» بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن والعزائم التي حمل عليها سلف هذه الأمة، وبها ادركوا ما ادركوا من الفلاح!

ومن أعظمها أيضا «الجبن والهلع» بعد أن كان المسلمون أشهر الأمم في الشجاعة، وفي احتقار الموت!

وماذا أيضاً؟

ماذا من أعظم الأسباب ــبين عشرات الأسبابــ في تأخر المسلمين؟

يقول الأمير شكيب: وقد انضم إلى الجبن والهلع اللذين أصابا المسلمين: «اليأس والقنوط» من رحمة الله.. فمنهم فئات وقر في نفوسهم أن الأفرنج هم الأعلون على كل حال، وأنه لاسبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه، وان كل مقاومة عبث، وأن كل مناهضة خرق في الرأي، ولم يزل

هذا التهيب يزداد و يتخمر في صدور المسلمين أمام الأوربيين، إلى أن صار هؤلاء ينصرون بالرعب، وصار الأقل منهم يقودون الأكثر من المسلمين!

وعندما نتأمل نجد أن الأمير شكيب ـــ يرحمه الله ـــ لم يبالغ في هذا الذي يقوله عن اليأس والقنوط!

سبب آخر أيضا.

سبب آخر لايقل خطرا عن الجبن والهلع، أو اليأس والقنوط:

سبب آخر يذكره الأمير شكيب في جملة الأسباب لتأخر المسلمين.

هذا السبب هو ما يسميه «الجمود»!

ثم يتصدى للرد على بعض المزاعم مما يذيعه أعداء الاسلام، ومنها أن الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية اسلامية، والدليل على ذلك هو الحالة الحاضرة للمسلمين!

وفي هذا يقول الأمير:

خرافة يموه بها بعض أعداء الاسلام من الخارج، و بعض جاحديه من الداخل، أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوربية.. وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الاسلامي بذور الالحاد.

ثم ينتهزها مناسبة ـــ وإنها لمناسبة حقاً ـــ فيفيض في الحديث عن المدنية الاسلامية، وآثارها بما يدحض كل المزاعم، وكل الأراجيف.

وأخيراً.. ينهي الأمير جوابه القيم لهذا السؤال بكلمة عن القرآن الكريم وحثه على العلم فيقول:

العالم الاسلامي يمكنه النهوض والترقي واللحاق بالأمم العزيزة الغالبة اذا أراد ذلك المسلمون، ووطنوا أنفسهم عليه، ولا يزيدهم الاسلام إلا بصيرة فيه وعزماً، ولن يجدوا لأنفسهم حافزاً على العلم والفن خيراً من القرآن الذي فيه: «هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون» والذي فيه: «وزاده في العلم بسطة» والذي فيه: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» والذي فيه: «و يعلمهم الكتاب والحكمة» ثم يرد على أحد المبشرين زعمه أن المراد بلفظة العلم في القرآن هو العلم الديني فقط فيقول الأمير:

كل من تأمل في مواقع هذه الآيات المتعلقة بالعلم والحكمة وغيرها مما يحث على السير في الأرض والنظر والتفكر يعلم أن المراد هنا بالعلم هو العلم على اطلاقه.. وأن المراد بالحكمة العلمية المعروفة عند الناس.

بالاضافة إلى ما تقدم يقرر الأمير شكيب أن على المسلمين لينهضوا و يتقدموا و يعرجوا إلى مصاعد المجد، و يترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم ان يؤدوا واجبهم في الجهاد وهو الذي أمر به الله في قرآنه مراراً عديدة وهو ما يسمونه اليوم «بالتضحية» فلن يتم للمسلمين ولا لأمة من الأمم نجاح ولا رقي إلا بالتضحية.

فالمسلمون يمكنهم إن أرادوا، وجددوا العزائم، وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم، أن يبلغوا مبالغ الأوربيين والأمريكيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا على اسلامهم، كما بقي أولئك على أديانهم، بل هم أولى بذلك وأحرى، فان أولئك رجال ونحن رجال، وإنما الذي ينقصنا الأعمال، وإنما الذي يضرنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال!



بين التاريخ والآثار

أقوى الصلات يلحظها كل منا، بين التاريخ والآثار.

ذلك لأن الآثار. عدا أنها مصدر –لاغنى عنه– من المصادر الأولى للتاريخ، فهي أيضا –وبصورة جلية– تبدو لنا أوثق هذه المصادر. وأولاها بالاعتبار.

انها المصدر الأوثق.. لأنها فيما ترويه لنا من أخبار الماضي. لايمكنها إلا أن تنقل الواقع كما هو.. وليس من طبيعتها أن تحابي أو تنحاز!

أو كما يقول «غوستاف لوبون»: هي أفصح لسان يعبر عن الحقيقة باخلاص.. وصحف الأحجار لا تعرف الكذب.. ولشهادتها في تاريخ التمدن أهمية عظمى» (١)

اختلاف أكيد –اذن– بين ما تحكيه الآثار لنا.. وما تحكيه المدونات، أو يرويه الرواة.

للآثار انفرادها –كما ترى في اعطائنا الحقائق عن الأمس القديم، دون رتوش، وبلا تزيد، أو نقص، أو تحريف.

لقد استفاد التاريخ من علم الآثار، وبالتالي من الآثار نفسها: الآثار العديدة الضخمة التي اكتشفت منذ القرن الماضي، والتي ما زالت تكتشف ولعلماء الآثار الفضل في ذلك، ولغيرهم من الباحثين والمستطلعين والرواد.

وقد كان من حظ هؤلاء العلماء، ومن حظ غيرهم من الباحثين –خاصة في الغرب– أن يلقوا من التشجيع، وفي كثير من الأحيان من العون المادي، ما قد كان له أثره في دعم جهودهم، وفي دفعهم إلى المضي قدما في هذه الجهود.

وكانت حصيلة ذلك أن التنقيب عن الآثار. استمر سائرا في طريق معبدة. دون عوائق. أو مثبطات، فاكتشفت آثار. هنا وهناك. ألقت كثيرا من الضوء عن التاريخ القديم. وعن عدد من الحضارات ظل خبرها. حينا من الدهر، في طوايا النسيان.

هذه الملامة أردت أن أبدأ بها حديثي هذا السريع عن كتاب الاستاذ عبدالقدوس الأنصاري الجديد «بين التاريخ والآثار».

---

(١) غوستاف لوبون. مقدمة الحضارات الأولى. ترجمة صادق رستم ص ٦

ولعله مما يدعو إلى التقدير، أن يكون هذا الكتاب واحدا من كتب ثلاثة، ينشط لاخراجه في هذه السنة الاستاذ الأنصاري.

ولعله مما يستأجب التقدير أكثر، أن يكون هذا الكتاب ثمرة جهد شخصي مرموق، عاناه المؤلف، باحثا بنفسه عن الآثار، في أكثر من مكان ثم انه جهد بذله وعاناه باهتمام كبير منذ أكثر من ثلاثين عاما كما يعرف الجميع.

يصفه مؤلفه في سطور فيقول: «هذا الكتاب «محصول» دراسات متوالية، للتاريخ والآثار، استمرت امدا ينيف على ثلاثين عاما.. بدأها المؤلف في المدينة المنورة. في شوارعها ومنازلها، ومساجدها وقصورها الأثرية وجبالها ووهادها وحرارها، وأوديتها.. وبلغ بها السير إلى مكة المكرمة وجدة والطائف والرياض والخرج والدرعية وتيماء في المملكة العربية السعودية، والبحرين والكويت والاردن ومصر ولبنان في خارج المملكة. وقد عني المؤلف بصهر دراساته هذه المتشعبة في بوتقة دراسات مركزة هادفة وشاملة.

ويقول في مقدمته: «..دعاني إلى اقتحام ميدان هذه البحوث العويصة التي لايزال الغموض يكتنفها في كثير من أبعادها وحقائقها، دعانى إلى ذلك محاولة ابراز ذلك الاسهام الكبير الذي قامت به حضارة العرب في جاهلية وفي اسلام حيال الحضارة الانسانية الشاملة».

«واني بهذه المناسبة— أدعو باخلاص وحرارة علماء العرب والمسلمين إلى مزيد من هذه البحوث الأثرية التاريخية الكاشفة.. كما ادعو أيضا إلى تخصيص وافر الأموال والجهود والرجال للبحوث الأثرية التنقيبية في أعماق أرضنا المعطاء، حتى تخرج لنا من ينابيعها الثرة كنوزها الثمينة المطمورة في باطنها.. على أن نقوم نحن أيضا بهذه المهمة العلمية، غير معتمدين على اهتمامات غيرنا في هذا السبيل اللهم إلا بالنصيب الضروري فيما لابد منه من التعاون البشري العام على تقدم العلوم وتوسعة آفاقها، كما أدعو في نفس الوقت إلى مزيد من البحث في بطون الكتب التاريخية والأثرية والعلمية والأدبية، باستخلاص حقائق تاريخنا القديم المبعثرة.

ومع المؤلف نمضي في مقدمته، ومنها ننتقل إلى حديثه في البحث الأول من الكتاب، عن جزيرة العرب، وأسبقية حضارتها في التاريخ!

في هذا البحث: «اضواء على تاريخ جزيرة العرب» يحدثنا المؤلف حديثا ضافيا في هذا الموضوع.

انه يحدثنا —ومعه أكثر من دليل— مؤكدا الرأي القائل: (ان جزيرة العرب هي مهد الحضارة العالمية).

لانها المهد الأول للساميين عموما والساميون هم بناة هذه الحضارة، و يعقب على ذلك بقوله: «هذا ما يراه كثير من علماء الآثار، ولهم دلائل أثرية، ودلائل خبرية مقارنة ودلائل منطقية وطبعية على دعم هذا الرأي»([١]).

ومع أن كثيرا من الباحثين ما يزالون ينوهون بحضارة الاغريق، و بعضهم يشير في هذا الصدد إلى حضارة مصر باعتبار انها اقدم الحضارات، إلا أنه يبدو أن الأرجح هو ما يشير إليه الاستاذ المؤلف ــ لا لمجرد الميل إلى هذا الرأي ــ بل لأن البحوث الأثرية المتتابعة هي التي تؤيد ذلك.

و يزيدنا المؤلف ايضاحا هنا، اذ يقول: «وإذا أردنا أن نحدد المنطقة التي نشأت منها الحضارة فيما قبل التاريخ، والتي عرف فيها التعدين والزراعة والصناعة والتجارة، وسائر مقومات الحضارة قبل أي جزء آخر من اجزاء الدنيا القديمة، فلنا أن نقول استنادا على أرجح أقوال الأثريين والجيولوجيين: انها المنطقة التي توصل بين نجد والحجاز، وهي التي تكثر فيها المعادن، وهي التي اكتشفت فيها آثار المدن والقرى والتلال التي طمرت مدنا ومصانع ومقابر عريقة في القدم، من آثار أولئك الجبابرة بناة الحضارة الانسانية الأقدمين».

وهنا نعود إلى الآثار.. لنذكر فضلها في هذا المضمار.

فهي التي ازالت القناع، وأبانت ما كان خافيا، عن فترة هامة، موغلة في القدم من تاريخ الجزيرة العربية!

والسؤال ــ ان كان لابد من سؤال ــ ما الأسباب؟

الأسباب التي آلت بالحضارة الأم.. إلى أن تتراجع، وتندثر، ثم يهملها التاريخ المكتوب؟

ان لذلك حديثا يطول.. حديثا لم يدعه المؤلف دون اجابة فما على القارىء المستزيد سوى أن يراجعه في موضعه من الكتاب([٢]).

و يشير المؤلف في هذا البحث إلى كثرة الآثار وتنوعها في هذه البلاد، وهي آثار أمم استوطنت بها منذ التاريخ السحيق، ثم زادت هذه الآثار كثرة بعد ظهور الاسلام، وهو يصنف هذه الآثار تصنيفا يحصرها في اطار محدد ــ كما يذكر ــ ومن هذه الآثار: الأماكن الدينية والتاريخية، والمقابر والهياكل والشواهد والأعلام، والبيوت والمنازل والقصور والآكام والحصون،

---

(١) بين التاريخ والآثار: ص ١٧

(٢) الكتاب: ص ٢١

ثم الزخارف والأدوات الحجرية والمناجم والمعادن، والسدود والعيون والصهاريج والبرك، ثم المصانع والمزارع والأدوات الصناعية والزراعية، والخطوط الأثرية المسطورة والمنقورة والكتب والحجج والوثائق.. وغيرها.

انه معين لاينضب للتاريخ الحضاري.. ما يزال في حاجة إلى مزيد من البحث وإلى مزيد من التنقيب.

ونمضي مع المؤلف بعد هذا البحث التمهيدي المستفيض لنستمع إليه في حديثه المتتابع عن الآثار في كل من مكة المكرمة وما حولها..والمدينة المنورة وما حولها.. والرياض وجدة وما حولهما.. ثم في عسير وفي الشمال.. وفي فصله عن الآثار في الشمال يطرفنا بحديث ممتع عن «الحجر ومدائن صالح» وعن «بيوت مدائن صالح» وعن «موطن شعيب عليه السلام».

حديث شاهد عيان يغريك بمتابعته و يغريك أكثر بالتأمل، وامعان التفكير.

وفي حديثه قبل ذلك عن آثار المدينة وما حولها.. نمضي معه إلى حصن كعب بن الأشرف — المشهور في كتب السيرة — فيحدد موقعه بالضبط بعد معاينة و بحث.. ولا ينسى العقيق وما أدراك ما العقيق.. وما أشيد فيه من دور وقصور كان لها شهرة ودام لها ذكر.. قصر عروة بن الزبير.. قصر عبدالله بن عامر.. قصر مروان بن الحكم.. قصر سعيد بن العاص — وهو الوحيد الباقية آثاره إلى اليوم — وغيرها..وغيرها..

قصور ودور.. يحدد مواقعها.. ومع قصور العقيق ودور العقيق نمضي معه إلى بساتين العقيق، وجماوات العقيق، وكان ابتداء عمرانه في حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم امتد هذا العمران في زمن عمر: «فأنشئت فيه البساتين، والقصور تدريجيا فما كادت دولة بني أمية تستريح من القلاقل الداخلية حتى وجهت عنايتها إلى عمرانه فأصبح جنة سندسية خضراء»(١).

وفيما حول المدينة أيضا لابد من وقفة مع المؤلف عند «الصويدرة» أو وادي الآثار الجميل(٢).

وحقا انه جميل.. جميل بآثاره (وقدصور المؤلف أكثرها وأثبتها في الكتاب) ان آثار الصويدرة العديدة من صور انسانية وحيوانية ونقوش كتابية منقورة في صخورها، شاهدة على حضارة القوم!

ونمضي في صفحات أخرى.. إلى الاردن حيث نستمع إلى حديث المؤلف عن «كهف أهل الكهف» حديث باحث منقب، وشاهد عيان. ثم إلى حديثه عن «البتراء»: المدينة الوردية

(١) ص ٨٤

(٢) الصويدرة مكان يقع على مسافة ٧٠ كيلو مترا من المدينة المنورة.

الساحرة، والرائعة ..كما اختار لها هذا الوصف .. والتي يقول عنها: «بالامكان أن نعتبرها من أعظم مدن العالم التاريخية جمالا، سواء في أيام انشائها، وازدهارها، أم فيما بعد ذلك في آثارها واطلالها .. و يقول عنها أيضا: «تتمثل عظمة البتراء في دقة فن النحت، وفي التصو ير، وروعة الهندسة المعمارية، مما قام به أولئك الأنباط العرب، الذين قدوا أبنيتها الفارعة الرائعة من الصخر الأصم الأشم»([1]).

وفي حديثه عن البتراء ــ وهو حديث شامل ومستقص ــ ينوه باسمها القديم «سلع»، انه اسمها كما سماها بذلك ناحتو بيوتها ومنشؤوها من النبط، و يقول في ذلك شاعرنا فؤاد الخطيب من قصيدته عنها:

هي سلع، والبتراء ترجمة اسمها   نسجت عليه عناكب الاهمال.

والحق ان حديث المؤلف عن البتراء .. حديث مغر .. ها هو في وقفته أمام قصرها المعروف بالخزنة ــ والذي ما يزال براقا كما كان ــ يصف لنا هذا الوصف الرائع.

«كنا أمام «الخزنة» مشدوهين بعظمة فن النحت العربي القديم، و بجمال قوام المبنى، و برشاقته، وتماوج الألوان الطبعية فيه، بما يفوق الوصف، و يفوت على الاستيعاب، ومع أن الخزنة في ألوانها المتشابكة هي طبعية، فلكأنها قطعة فنية استعمل فيها الفنان عشرات الألوان الممتزج بعضها ببعض، و يتجسد كل هذا الجمال الفني في الخزنة عندما تشرق ذكاء .. على وجهها الوردي المشرق .. فتستحيل حمرتها الوردية إلى حمرة خد الحسناء الجميل، في الصبح المتفتح الجميل!». إلى أن يقول:

«و بعد الخزنة شاهدنا المبنى المعد للرقص وهو دكة واسعة، و بها بعض الجدران التي بنيت بالجنادل، وقد اخترقت بعضها شجرة «البطم» والبطم شجرة ضخمة الساق، منحنية إلى الامام، وأوراقها غير كبيرة، وتميل إلى الاخضرار، وقيل لنا إن لها من العمر ١٨٠٠ عام».

وفي لمحات عن تاريخ البتراء، يقول: «وقد تمكن الأنباط من مدرواق ملكهم إلى شرق وغرب، وإلى جنوب وشمال، وضر بوا النقود الذهبية والفضية، وأقاموا دولة ذات كيان مستقل لها كل مقومات الدولة المنظمة .. وكذلك بنوا المراكب البحرية، واستقبلوا القوافل البرية والتجارية المحملة بمختلف السلع من مختلف أقاصي البلدان، وكان لهم خطهم الذي به يتكاتبون، ومن خطهم اشتق عرب الجاهلية الأخيرة في مكة المكرمة هذا الخط العربي الذي نكتب به اليوم».

«ومما يدلنا على عرو بتهم: اسماء ملوكهم فمنها الحارث الأول، ومالك الثالث الذي كان

([1]) صفحة: ٣١٢

يعاصر الامبراطور الروماني الطاغية «نيرون» محرق روما.. ومنها أيضا: «رئبال» والرئبال في اللغة العربية من أسماء الاسد»([1]).

و بعد فماذا بقي من حديث عن كتاب «بين التاريخ والآثار» ؟

انه من الواجب أن أقول إن مجال الحديث عنه ما يزال متسعا.. وما يزال في حاجة إلى اتمام.

بقية من حديث أشعر أنه كان لامندوحة عنها، نتابعها مع صفحات أخرى من الكتاب.

كان لابد من أن نقف عند الفصل الذي تناول فيه المؤلف آثار مكة وما حولها، وخاصة عند حديثه في هذا الفصل عن سوق عكاظ.. وحديثه المفصل عن قبيلة بني سليم، وأخبارها وآثارها.

وكان لابد أيضا من وقوف عند سورية ولبنان، وقد تحدث عنهما المؤلف حديثا نابضا وممتعا.

وكان لابد من أن أشير إلى عشرات من الصور لآثار منها المعلوم، ومنها المجهول زينت بها صفحات الكتاب.

غير أن المجال بطبيعته محدد هنا فلنؤثر الوقوف بعد هذه الجولة في الكتاب، عند مدينة السحر والجمال!

عند سلع.. أو البتراء!

المدينة التي لها تاريخ.. لا نتلوه في صفحات الكتب، بل ترو يه لنا في صورة أعمق تعبيرا «صحف الاحجار التي لا تعرف الكذب» كما يقول «غوستاف لو بون»!

انه تاريخ مشرف لحضارة عريقة سامقة، ارخى عليها الزمن ستار النسيان!

انه تاريخ من الآثار.

أفيحق لنا أن نقول: اخلق بنا أن نقرأ تاريخنا آثارا.. هي أفصح دلالة، وأبلغ ايحاء، وأحفل ببواعث التأمل، ومشاعر الاعتزاز!

نعم «و بين التاريخ والآثار» أخلق بنا أن نقف لنتذكر.. كلما طاب لنا، أو أتيح لنا أن نقف ــ لنتذكر ــ بين التاريخ والآثار. وتحية لكتاب يحمل هذا العنوان.

---

(١) صفحة: ٣١٨

في المقالة الأدبية

ما هي المقالة الأدبية أولا ؟

يبدو لنا أنه لامناص في هذا المجال، من أن نعود أولا إلى ما كتبه في هذا الصدد الكتّاب الغربيون.

والسبب: أن المقالة الأدبية، أو المقالة بصورة عامة، في اطارها الحديث تعتبر ــ فيما يشبه الاجماع ــ غربية المولد.. منذ أن وضع نواتها في القرن السادس عشر: الكاتب «مونتيني».

وسواء صح هذا، أو لم يصح.. فان هذا هو الرأي الأكثر ذيوعا في الأوساط الأدبية !

ولقد كتب الكثيرون من الكتّاب، ومن مؤرخي الأدب، حول المقالة الأدبية.

وبرغم كثرة ما كتب حولها.. فآراء الكاتبين تكاد تكون متقاربة في وصفها وتعريفها.

فأول ما يصفونها به، انها لاتخرج عن كونها تعبيرا عن احساس الكاتب، وعن آرائه الخاصة في الحياة.

دائرة المعارف البريطانية تذكر عن المقالة الأدبية انها قطعة مؤلفة، متوسطة الطول. وتكون عادة منثورة في اسلوب يمتاز بالسهولة والاستطراد، وتعالج موضوعا من الموضوعات، ولكنها تعالجه ــ على وجه الخصوص ــ من ناحية تأثر الكاتب به(١)

ويصفها أحدهم ــ وهو الكاتب آرثر بنسن ــ بأنها تعبير عن احساس شخصي، أوأثرفي النفس، احدثه شيء غريب، أو جميل، أو مثير للاهتمام، أو شائق، أو يبعث الفكاهة والتسلية.. ثم يسترسل في كلامه، فيقول: وهكذا تكون المقالة قريبة الصلة بالقصيدة من الشعر الغنائي ! ولكنها تمتاز إلى جانب ذلك بما يتيحه النثر من الحرية، وباتساع الافق وبمقدرتها على أن تتناول نواحي يتحاماها الشعر.. ثم يستطرد «بنسن» فيصف لنا كاتب المقالة بأنه شخص يعبر عن الحياة، وينقدها بأسلوبه الخاص.. انه لاينظر إلى الحياة نظرة المؤرخ.. أو الفيلسوف.. أو الشاعر.. أو القصاص.. ولكن في فنه شيئا من هذا كله.. انه ليس يعنيه أن يكشف نظريات جديدة، أو يوجد الصلة بين اجزائها المختلفة، ان طريقته في العمل ادنى إلى ما يسمى الأسلوب التحليلي: يراقب.. ويسجل.. ويفسر الاشياء كما تبدو له.. ثم يدع خياله يمرح في جمالها ومغزاها، والغاية في هذا كله انه يحس احساسا عميقا بصفات الأشياء. وبسحرها،

(١) محاضرات عن فن المقالة الأدبية ــ الدكتور محمد عوض محمد

و يريد أن يلقي عليها كلها نورا واضحا رقيقا، لعله يستطيع بذلك أن يزيد الناس حبا في الحياة، وأن يعدهم لما اشتملت عليه من المفاجآت المفرحة والمحزنة(١).

على هذا النحو نجد المؤرخ «هـ.ب تشارلتن» استاذ الأدب في جامعة مانشستر يقول عن المقالة الأدبية: انها في صميمها قصيدة وجدانية. سيقت نثرا.. لتتسع لما لايتسع له الشعر المنظوم! ثم يضيف: ان الأسلوب الجيد في المقالة يجب أن يكون «ذاتيا» لاينبني على أساس عقلي، ولا يبسط حقائق موضوعية(٢)!

تلك هي ــ في اجمال ــ آراء الغربيين في تعريفهم للمقالة الأدبية.

وهذه الآراء ــ أو الأوصاف ــ نفسها نصادفها عندما نستعرض ما كتبه عنها بعض المعاصرين من الكتاب العرب.. كالدكتور محمد يوسف نجم ــ مثلا ــ أو الدكتور محمد عوض محمد، أو الاستاذ العقاد، أو غيرهم من الباحثين.

فالدكتور نجم يعرف المقالة الأدبية بأنها قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة، خالية من التكلف والرهق، وشرطها الأول أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب(٣).

والدكتور عوض يذكر فيما يذكره، في محاضرة من محاضراته أن المقالة الأدبية الموفقة تشعرك وأنت تطالعها أن الكاتب جالس معك يتحدث إليك.. وانه ماثل امامك في كل عبارة وكل فكرة(٤).

أما الاستاذ العقاد فيرى أن من شروط المقالة الحديثة انها ينبغي أن تكتب على نمط المناجاة، والأسمار، وأحاديث الطرق بين الكاتب وقرائه، وأن يكون فيها لون من ألوان الثرثرة، أو الافضاء بالتجارب الخاصة، والأذواق الشخصية(٥).

وتقول الكاتبة نعمات احمد فؤاد في دراستها لأدب المازني الذي ترى فيه كاتب المقالة الأول.. في الأدب العربي الحديث.. تقول نعمات فؤاد في حديثها عن المقالة: انها ليست دراسة.. ولكنها كلام ليس المقصود به التعمق والتركيز، وهي في مدلولها الحديث ثرثرة بليغة محببة.. يبدأ صاحبها ولا يعرف كيف ينتهي(٦).

---

(١) المصدر السابق.
(٢) فنون الأدب تأليف «تشارلتن» تعريب الدكتور زكي نجيب محمود.
(٣) أدب المقالة للدكتور محمد يوسف نجم.
(٤) محاضرات الدكتور عوض.
(٥) فرنسيس باكون للاستاذ العقاد.
(٦) ادب المازني للدكتورة نعمات احمد فؤاد.. ومن الجدير بأن نشير إليه هنا ما تراه الكاتبة من أن المقالة بمدلولها الحديث الذي لايعترف بالتنظيم والتبويب والمنطق نجدها عند الجاحظ فالبيان والتبيين مثلا بأجزائه الثلاثة مجموعة مقالات تقوم الواحدة منها على فكرة يستطرد منها الجاحظ إلى فكرة أخرى وإن لم يجمعها رابط.. والكاتبة تخالف كما هو ظاهر ــ الرأي السائد في أن مولد المقالة انما كان في الغرب.

أما عن موضوع المقالة الأدبية.. فيمكن القول: ان كل ما يوصف به ـ في كلمة موجزة ـ موضوع المقالة الأدبية، هو «اللاحدود» ان جاز هذا التعبير!

ان كل موضوع، بالنسبة للمقالة الأدبية، ملائم لها.. أو كما يقول الدكتور احمد أمين: كل شيء في الحياة صالح لأن يكون موضوعا: من الذرة الحقيرة إلى الشمس الكبيرة، ومن الرذيلة إلى الفضيلة، ومن كوخ الفلاح إلى قصر الملك، ومن الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، ومن أقبح قبيح إلى أجمل جميل، ومن الحياة إلى الموت، ومن الزهرة الناضرة إلى الزهرة الذابلة، ومن كل شيء إلى كل شيء(1).

ـ بعد هذا ـ ما الذي يمكن أن نستخلصه من هذه الأقوال، ومن هذه الآراء؟ طبيعي سنستخلص ان المقالة الأدبية، هي قبل كل شيء: نمط يختلف عن غيره من أنماط المقالات.

انها فن قائم بذاته، له ملامحه، وله طابعه الخاص.

فهي أولا: لا تتقيد بموضوع، لأن كل موضوع صالح لها.. وترحب به كل الترحيب!

وهي ثانيا: تنفرد بأسلوبها السهل، غير المتكلف، العفوي، البسيط!

ولأنها ليست دراسة.. ولأنه ليس من طبيعتها العمق.. كان لابد لها أن تسير في غير خط المقالات السياسية، أو العلمية، أو الاجتماعية، أو غيرها.

ومن أجل ذلك كان بديهيا أيضا أن لايحاول كاتب المقالة الأدبية بأي حال أن ينهج في صياغته لها نهج الكاتب الاجتماعي، أو الكاتب المؤرخ، أو الكاتب الفيلسوف.

ان نهجه ـ كاتب المقالة الأدبية ـ مختلف جدا.

انه انسان.. أو شخص ـ كما يقول عنه ذلك الكاتب الغربي- يعبّر عن الحياة، و ينقدها بأسلوبه الخاص.

انه يراقب.. و يسجل.. و يفسر الأشياء كما تبدو له.. ثم يدع خياله يمرح في جمالها ومغزاها.

فلا غرو أن نرى الجمهرة من الكاتبين يسبغون على المقالة الأدبية وصفهم لها بأنها تشبه القصيدة الغنائية!!

والقصيدة. أو الشعر من حيث هو.. من أهم شروطه: العاطفة والخيال!

---

(1) فيض الخاطر ـ جزء أول ـ للدكتور احمد أمين

واذن.. فان الذي يبدو ــفي ضوء كل ما ذكرــ انه مما ليس عنه غناء في كل مقالة ادبية أن تتسم بما يلي:

اولا: العنصر الشخصي، و يقصد به شخصية كاتب المقالة نفسه التي يجب أن تكون أكثر وضوحا و بروزا طالما أنه ليس للمقالة الأدبية من هدف سوى أن تعبر ــفي صدقــ عن أحاسيسه ومشاعره، وتجاربه الذاتية، وآرائه في الحياة!

ثانيا العنصر العاطفي.. ثم الخيال.. لانه دون العاطفة والخيال تفقد المقالة أهم خصائصها، وأبرز سماتها!

ثالثا: السهولة والبساطة وعدم التكلف.. بحيث تبدو أمامنا المقالة ــوهذا ما ينبغي أن يكونــ كما لو كانت حديثا خاصا بين الكاتب واصدقائه من القراء!

انه من حق الكاتب الاّ يحفل والاّ يهتم بالناحية البيانية للمقالة.. أو أنه من حقه اهدار قواعد اللغة.. و بالتالي اهمال ما يفرضه عليه الفن الكتابي الأصيل.. من وجوب عنايته ــإلى جانب بلاغة الفكرةــ ببلاغة المعنى و بلاغة التعبير!



مهمة الأديب في الحياة

مثلما نجيب عن مهمة كل كائن حي في هذا الوجود، بل مثلما نجيب عن مهمة الانسان من حيث هو انسان في هذه الحياة، كذلك تكون الاجابة ــ في رأيي ــ عن مهمة الأديب في الحياة، فالأديب إن هو إلا انسان قبل كل شيء ومهمته كمهمة سواه، مهمة لافرق بينها و بين غيرها من مهمات الأحياء، اللهم إلا في الكيفية التي تتكيفها، وفي اللون الذي تظهر به.

وقبل أن نأخذ في بحث كهذا، وقبل أن نجيب عن المهمة الملقاة على عاتق الأديب لابد لنا من وقفة استفهام، أو بعبارة أخرى لابد لنا من أن نسأل عن مهمة الحياة نفسها، والسؤال عن مهمة الحياة قد يستدرجنا بل هو يستدرجنا حقيقةً إلى أن نسأل سؤالاً آخر له أهميته.. هذا السؤال هو ما هي غاية الحياة؟ ما هي مهمة الحياة؟ أما مهمة الحياة فقد يمكن تلخيصها في عبارات موجزة، بعيدة عن التبسط و بعيدة عن التصنع، و بعيدة أيضا عن التهريج الذي اعتاد البعض أن يظهروه.. مهمة الحياة هي أن تستمر.. وتستمر.. وأن تظل محافظة على سنتها الدائمة التي هي (حفظ النوع) أما الأحياء فلكل منهم مهمته الخاصة به، ومهماتهم على اختلافها وكثرتها قد لاتختلف في غاياتها عن تلك الغاية المنشودة، وإن كانت تمتاز بشيء آخر، أجل تمتاز مهمة كل حي في هذا الوجود بأن لها غرضاً سامياً جميلاً، ذلك هو نشدان الكمال.. ذلك هو الطموح إلى الأفضل.. ذلك هو العمل والجهاد باستمرار في سبيل الارتقاء والتحسين، الارتقاء الذي أساسه القوة، والتحسين الذي دعامته الجمال!

استمرار ومحافظة على النوع، هي ذي أساسيات الحياة، أو بعبارة أخرى هي ذي مهمتها، وهي هي غايتها، ثم جهاد مستمر في سبيل الارتقاء والتحسين تلك هي المهمة المفروضة على كل انسان، وتلك هي الطريق المعَّبد الذي لاطريق سواه كما هو الواقع يصل به إلى السعادة التي هي غاية الانسان وأمله المنشود!

والآن فلنتوغل قليلاً، ولنمش برهةً وجيزة في ساحة الحياة، ولنلق نظرات سريعة على الأشياء التي تبدو فيها أمام الرائي لأول وهلة.. أو على الأشخاص البارزين فيها تحت ضوء الحياة العصرية التي نعيش فيها الآن.

إننا نجد الطبيب والمهندس والتاجر والزارع والصناعي والعالِم كما نجد المُعلم والمحامي

والموظف والصحافي والكاتب والشاعر وغير هؤلاء من الأشخاص، وقد يكون في ذكر هؤلاء كفاية للاستدلال على نوع الأعمال التي يؤديها الأحياء في مثل هذا العهد الذي نعيش فيه.. ولسنا نريد الاسهاب فاننا نريد أن نتكلم عن مهمة الأديب ليس إلا، ولكن ما حيلتنا وقد شاء القلم غير ما نشاء.. واسترسل على غير عادته في الاستطراد، فعذراً أيها الكرام القارئون!

لندع إذن الطبيب والمهندس وغيرهما.. ولنمسك بتلابيب الأديب. والأديب في عصرنا الراهن ينضوي تحته عدة شخصيات أدبية لها طابعها الخاص بها.. والشاعر أيضا له مميزات لا توجد في زميله. وهناك الكاتب غير الصحافي.. والكاتب الفنان وهو الآخر له شخصيته التي لاينكرها أحد.

الكاتب والشاعر والصحافي، ثلاث شخصيات تسيطر في عالم الأدب اليوم، فما هي مهمة كل منهم ياترى؟ وما هي الغاية التي ينشدونها، وهل تتفق هذه مع الغاية المشتركة العظمى التي أسلفنا كلامنا عليها؟

هو ذا الصحافي وهو أوثق زملائه صلةً بالجمهور.. فما هو واجبه ياترى؟ إنه الجهاد المستمر في سبيل غاية عامة يسعى وراء تحقيقها، وهذه الغاية هي نشر مختلف المعلومات، واطلاع القارئين على آخر الأنباء، وأحدث الآراء في ميادين السياسة والاقتصاد والعلم والأدب والاجتماع. ومجموع هذه الأمور متحدة نتيجتها المحتومة ارتفاع مستوى الفكر في المجتمع، ومن هنا — كما نرى — يمهد للمجتمع سبيل من سبل الارتقاء.. ذلك الارتقاء الذي يشترك الأحياء في الطموح إليه، والذي اساسه كما قلنا القوة والمعرفة.

هذه هي غاية الصحافي وتلك هي مهمته، وهذه الغاية هي إحدى غايات الأديب، وتلك المهمة هي من مهماته في الحياة.

والشاعر، ولست أعني بالشاعر كل من استطاع أن ينظم للناس جملا موزونة ومقفّاة.. كلا فالشاعر الذي أعنيه هو ذلك الشاعر الذي خُلق وخُلقت معه الشاعرية.. هو ذلك الذي يقول الشعر بحكم الطبع لا التطبع، هو ذلك الذي قبل أن يعرف القوافي والأوزان.. وجدت معه قريحة مطبوعة توحي إليه — كما قيل — فتبعث الشعر حياًهذا هو الشاعر.. ومهمته في اعتقادي ليست بالعسيرة ما دام أنه يقول الشعر بحافز من غريزته المخلوقة معه، وما دام أنه لايتعمل ولا يتكلف.. أما هذه المهمة فليست مهما اختلفت مشارب الشعراء، وليست مهما تباعدت أذواقهم وأساليبهم سوى نشدان الجمال والتغني به.. وليست إلا التعبير عن آماله وآلامه، وعن أحاسيس مجتمعه الذي يعيش فيه.. ومن ثم فمهمته أن يسمو بنفسه، وبمجتمعه عن طريق هذا التغني، وتلك مهمة أخرى يؤديها الأديب الشاعر في هذه الحياة.

و يأتي الكاتب، وتأتي مهمته أيضاً.. وقد تكون مهمة الكاتب عسيرةً وشاقة، وقد تكون متشعبة أيضا، ولا أبالغ إن قلت انهـا مهمات متعددة، فهناك مهمة اجتماعية يؤديها الكاتب الذي يتخصص في الاجتماع وهناك الكاتب الذي لا يشغل نفسه بغير التاريخ، وهناك الذي يجعل ديدنه النقد الأدبي.. وهناك غير هؤلاء، فعلى الكاتب إذن القسط الأوفر من مهمة الأديب ولاجدال، ولكن.. ولكن ألست ترى أنه في الامكان أن نصف بكلمة و بكلمة واحدة فقط مهمة الكاتب أو بعبارة أخرى مهمات الكاتبين بأنواعهم.. ألست ترى أن كلمة (نقد) هي أصدق ما يصح أن تصف به هذه المهمة، أو هذه المهمات؟

الكاتب الاجتماعي، والكاتب المؤرخ، وكاتب البحث الأدبي، كل هؤلاء ناقدون، ووظيفتهم جميعاً هي النقد.. النقد باعتبار معناه الحقيقي لا السطحي.. النقد الذي هو دراسة الكتب، ودراسة الحياة، النقد الذي هو الغربلة والتمحيص والفهم، ووصف الأشياء على حقائقها، وتمييز الغث منها والسمين، وإظهار كل ذلك للناس في اسلوب جميل، وتعبير صادق، حباً في الافادة والتفهيم وانارة الأذهان، وتغذية العقول بكل ماهو طريف ومفيد!

لقد عرفنا أن مهمة الكاتب هي نقد الحياة، وليس شك في أنها مهمة عسيرة وشاقة كما قلنا.. بل هي من أصعب المهمات الأدبية، وأوشك أن أقول انها من أصعب مهمات الحياة.

وأخيراً نرجو أن نكون قد استطعنا في هذه الألمامة السريعة الادلاء بما يقرب من الصواب حول هذا الموضوع، ولعلنا في هذه الفترة ــ وقد بدأنا نشعر فيها بمبادىء حركة أدبية حية في بلادنا ــ لعلنا نرى ثمار هذه الحركة قريباً إن شاء الله، كي نصل إلى ما وصل إليه غيرنا من نهوض وتقدم، وما ذلك على الله بعزيز![1].



---

(١) المنهل: ربيع الأول ١٣٥٧هـ

نظرات في الأدب

الأدب صورة من صور الحياة وكما أن الحياة في تطور دائم مستمر وكما أن أوضاعها ومظاهرها لا تفتأ تتغير حينا بعد حين وتتبدل عند كل ظرف مناسب ــ وما أكثر حدوث هذه الظروف ــ فكذلك الأدب حاله كحال الحياة وشأنه كشأنها لايفتأ خاضعا لنواميس التبدل والتحول وهو منذ أن وجد في الوجود والتطور يلابسه في كل عهد من عهوده وفي كل منحى من مناحيه.

وليس يشبه الأدب الحياة في أنه خاضع مثلها لنواميس التبدل والتحول فحسب بل هو يشبهها في أنه تابع لها وتطوراته تابعة لتطوراتها وكل ما يلازم الحياة التي تحياها الأمة من تقدم أو تأخر وقوة أو ضعف يلازم أدبها بلا شك فلننظر إلى الأدب العربي في مختلف عهوده القديمة والحديثة ولندرس إلى جانب ذلك تاريخ الأمم العربية في كل تلك العهود فسترى بعد قليل من النظر والدرس أن الأدب العربي ــ كسواه من آداب الأمم الأخرى ــ لم يخرج عن القاعدة ولم يشذ عن الناموس الشامل، سنرى بعد قليل من الدرس والنظر أن الأدب العربي كان تابعاً في جميع عهوده لأحوال الأمم العربية التي ينتمي إليها.

فليس من شك أن أدب الجاهلية إنما هو صورة من الحياة في ذلك العصر الجاهلي كما أن الأدب في عصر النبوة هو صورة من حياة ذلك العصر. وقل مثل ذلك عن الأدب الأموي وعن الأدب العباسي وقل مثله أيضا عن آداب العصور التي تلت عصر العباسيين، أو العصور التي يسمونها «عصور الانحطاط» والتي ظلت وظل معها الأدب متأخراً جامداً لاروح فيه ولا حياة حتى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، حيث ابتدأت من ثم نهضة الأدب الحديثة وكانت نهضته وكانت هذه التطورات التي نشاهد آثارها فيه الآن إنما هي صورة من حياة الأمم العربية الآن وتعبير عن آمالها وآلامها وتحليل لشؤونها وشجونها ونقد وغربلة لكل ماهو سيء من أحوالها وعاداتها وإهابة بها إلى نشدان المُثل العُليا وإلى النهضة وإلى العمل للتقدم والارتقاء.

في الأدب العربي الحديث يوجد تطور ملموس يشهده الدارسون له والمتتبعون لآثاره بل في الأدب العربي الحديث (ظاهرة) يصح أن نسميها (تمرداً) (لا تطوراً).

هذه الظاهرة التمردية تكاد تشمل الأدب الحديث في أغلب مناحيه ففي المعاني وفي الألفاظ وفي الأساليب وفي المواضيع وفي الاتجاهات التي يتجه إليها الكاتبون في كل ما سبق يشهد الذين يتابعون الحركة الأدبية في العالم العربي آثار ذلك التمرد واضحة جلية وليس يمنعنا من تقرير

ذلك وجود بعض آثار من الأدب، تحاكي في سيرها الأدب القديم ، فهذه الآثار الأدبية لان مصدرها التقليد والمحاكاة تخرج ــ في اعتبار كل النقدة ومؤرخي الآداب ــ عن كونها آداباً تمثل عصرها الذي يمارسها اصحابها فيه.

لماذا تطور الأدب العربي الحديث؟ الجواب معلوم بالطبع فذلك لأن الحياة نفسها قد تطورت واصبحت غير ما كانت عليه بالأمس.. أما لماذا توجد ظاهرة ما أسميناه التمرد في هذا الأدب فذلك لأن الحياة التي تحياها الشعوب العربية المختلفة انما هي حياة انفعال أو (تكهرب) إن صح هذا التعبير. حياة الشعوب العربية الآن حياة مؤلمة مريرة يتخللها القلق والارتباك و ينتابها اليأس والألم، وذلك لأن هذه الشعوب اليوم بازاء نضال عنيف مستمر مع الدول القوية المتسلطة الاستعمارية فهي تناضل في سبيل ما تنشده من حرية واستقلال،ومن شأن هذا النضال المستمر العنيف أن يساعد على تقوية عاطفة (الانفعال) ومن شأنه أن يجعل الجو (مكهربا) على الدوام ومن شأنه أن يشجع على وجود التمرد حقيقة واذاً فطبيعي أن تغمر الأدب العربي هذه النزعة وطبيعي أن يطغى تيارها الجارف و يسحق كل ما قد يجده أمامه من التيارات لأنه التيار الأقوى.

و بعد فما شأن هذه النزعة التمردية في الأدب الحديث؟ وما أثرها ياترى؟

إن شأنها لجد عظيم وأثرها المحمود لايمكن أن ينكره المنكرون فتلك النزعة الشريفة ان دلت على شيء فانما تدل على أن (روح الحياة والطموح) قد دب دبيبها في نفوس الناطقين بالضاد وهذا هو خير ما تثلج له الصدور وليس احتياج العرب اليوم على اختلاف الظروف المحيطة بهم بل ليس احتياج كل أمة تريد أن تتقدم وترتقي إلا إلى (روح الحياة والطموح) لأن وجود هذه الروح في الأمم هو أساس كل مجد وعظمة وتقدم وارتقاء[١].



(١) صوت الحجاز، العدد ٧٢ في ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢ هـ

شاعر الإسلام

في كل عام تحتفل باكستان بذكرى شاعرها الكبير، وشاعر الاسلام دكتور محمد إقبال.

والواقع أن الدكتور محمد إقبال، حقيق بأن يحتفل بذكره كل المسلمين، و ينوهوا به و يرددوا سيرته في كل مناسبة، ذلك لان إقبالاً لم يكن شاعراً عادياً، أو شاعراً محدود الأفق، أو شاعراً من شعراء الوطنية الاقليمية الضيقة، أو شاعراً من شعراء البرج العاجي من أصحاب نظرية الفن للفن.. لم يكن إقبال من هذا الطراز من الشعراء البوهيميين.. وانما كان شاعراً، أبعد أفقاً من ذلك، كان شاعراً اسلامياً مؤمنا، وملتزماً، ومن أجل ذلك كان ظهوره في هذه الحقبة من تاريخ المسلمين حدثا خطيراً، واستحق بشعره الذي طالما تغنى فيه بأمجاد الاسلام، وأشاد فيه بعظمة المسلمين ــ مما لم يعهد من شاعر آخر سواه ــ أن يلقَّب بشاعر الاسلام!

ولم يكن شعر إقبال في تغنيه بأمجاد الاسلام وعظمة المسلمين من ذلك النوع من الشعر التقليدي.. ذلك النوع الذي قلما يخلو منه ديوان شاعر من شعراء المسلمين في العهود الأخيرة، أو قلما تخلو منه صحيفة أو مجلة من صحف ومجلات البلدان الاسلامية كلا.. وإنما كان شعر إقبال من طراز آخر متميز، من أبرز سماته الصدق، كان اقبال في جميع شعره يصدر عن عاطفة قو ية لا عن تقليد، وعن ايمان عميق وليس عن رياء، إن حب إقبال للاسلام والمسلمين كان حباً صحيحاً، بل كان عشقاً وهياماً، وهذا هو سر عظمة إقبال!

اما السر في هذه العظمة فهو أن إقبالاً كان كما قلنا صادقاً في هذا الشعر، وكان مخلصاً وكان مؤمنا بما يقول.. والميزة الأولى لكل شعر عظيم منذ أن عرف الناس الشعر هي صدق العاطفة، وصدق التعبير، وإخلاص الشاعر وإيمانه بما يقول.

وكنتيجة لحب إقبال، وهيامه بالاسلام، وصدق عاطفته في هذا الحب، حبه للأمة العربية، أمة الاسلام، فما أكثر ما أشاد بها في شعره، وما أكثر ما عبر في هذا الشعر عن إشفاقه مما آلت إليه في حاضرها المؤلم المرير.. فاسمعه يخاطب هذه الأمة في احدى قصائده الشهيرة فيقول:

أمة الصحراء ياشعب الخلود! ... من سواكم حلَّ أغلال الورى؟
أيُّ داعٍ قبلكم في ذا الوجود ... صاح: لاكسرى هنا.. لا قيصرا؟
من سواكم في حديث أو قديم ... أطلع القرآن صبحاً للرشاد؟

هاتفاً في مسمع الكون العظيم ليس غير الله رباً للعباد؟

وفي هذه القصيدة، لاينسى إقبال أن يشيد بالمسلمين وبدولتهم، وابتكارهم، وبمظهر عزتهم وملكهم الحصين حين يقول:

لاتقل: أين ابتكار المسلمين وسل الحمراء..واشهد حسن تاج
دولة سار ملوك العالمين نحوها طوعاً يؤدون الخراج!
دولة تقرأ في آياتها مظهر العزة والملك الحصين

ثم يعود إلى خطابه للأمة العربية:

وي كأن لم تشرقوا في الكائنات بهُدى الايمان والمنح الرشيد
ونسيتم في ظلام الحادثات قيمة الصحراء في العيش الرغيد
كل شعب قام يبني نهضةً وأرى بنيانكم منهدما!
في قديم الدهر كنتم أمة لهف نفسي كيف صرتم أُمما؟!
كل من أهمل ذاتيته فهو أولى الناس طرًّا بالفنا
لن يرى في الدهر قوميته كل من قلد عيش الغربا!
فكروا في عصركم واستبقوا طالما كنتم جمالا للعُصُر!
واملأوا الصحراء عزماً واخلقوا مرة أخرى بها روح عُمر!

وكما يوجه إقبال خطابه إلى الأمة العربية في هذه الأبيات الرائعة نراه في مقطوعة أخرى يخاطب الرجل المسلم أينما كان.. مُنقِّراً على هذا الوتر الحساس، فيقول:

إن هذا العصر ليل فأنر أيها المسلم ليل الحائرين!
وسيفنى الحق في لج الهوى لايرى غيرك ربَّان السفين!
ليس في الوقت فراغ فاعتزم واملأ الدينا باعمال شريفه!
أنت نور الأرض تهدي أهلها لن يُرى غيرك في الأرض خليفه!

ويقول:

قم وانشر التوحيد في الد نيا، ووحد الأمم!
فأنت خير من دعا وأنت خير من حكم

إن شعر إقبال كله يفيض بمثل هذه الحيوية، وبمثل هذه الروح الصافية، وهذا الايمان المشرق، وهذا الحماس المتدفق، وهذا الحب الخالص لكل ما يمت إلى الاسلام بنسب.. لقد تغلغلت عقيدة الاسلام في نفس إقبال، ولذلك لاتجد في جميع آياته الشعرية الرائعة إلا كل ما

يعبر عن معنى من معانيه، أو اتجاه من اتجاهاته، أو فكر من افكاره.. انظر إليه كيف يعبر عن فكرة الحياة بعد الموت و يشير إليها في هذه الأ بيات:

حينما يسفر الصباح نديًا ناصعاً في مواكب الاشراق
يغسل النور في المشارق أدرا ن الدياجي من حلة الآفاق
و يطير الكرى و ينتبه العُشبُ وتصحو عزائم الكائنات
و يهب الأحياء في البر والبحـ ر ليستقبلوا عروس الحياة
وإذا كان للخلائق نامو س يرينا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن بعد ليل الحمام صبح البقاء

وقد ولد إقبال في وطنه الهند سنة ١٨٧٣م وتوفي سنة ١٩٣٨م ودرس أولا في الهند، ثم في لندن ونال درجة دكتور في الفلسفة من جامعة ميونخ بألمانيا، واشتغل في أوائل حياته بالمحاماة، ومن هنا نعرف مدى مكانته من الناحيتين العلمية والثقافية، ثم مدى ما افادته شاعريته الخصبة من هذه الثقافة الواسعة ذات الجوانب المتعددة، إلى جانب سياحاته المتكررة في أوربا، واختلاطه بكبار ادباء وعلماء وفلاسفة الغرب مما كان له ولاشك أثره في حياته وتفكيره وشعره، ولعل من أهم ما يلفت النظر في هذه الناحية، أن إقبالا رغم تضلعه في علم الغرب وأدب الغرب، وفلسفة الغرب، ورغم أنه عاش زمناً ليس بالقصير في كبريات العواصم الغربية، فقد عاد إلى الشرق بعد ذلك وهو أقوى إيماناً، وأقوى عقيدة، وأقوى إسلاما.. وكان منه أخيراً ذلك الرائد المصلح المفكر، بل ذلك الشاعر الفذ: شاعر الاسلام!

وقد ترك إقبال أحد عشر ديواناً كان أول ما نشره منها «أسرار خودي» سنة ١٩١٥م باللغة الفارسية وآخرها «أرمغان حجاز» باللغتين الفارسية والأ ردية.

ومن دواو ينه التي ترجمت إلى اللغة العربية «بيام مشرق» وقد صدر بالفارسية سنة ١٩٢٣م ونقله شعراً إلى اللغة العربية المرحوم الدكتور عبدالوهاب عزام.

و بيام مشرق أو رسالة المشرق يعتبر من أهم دواو ين إقبال و يقول عنه الوزير الباكستاني «جو هدري نذير أحمد» في كلمته التي صدر بها الترجمة العربية: «إن بيام مشرق» خير مثال لفن إقبال وفكره.. وهو يعد في الجملة درة انتاجه، وقد بلغ فيه إقبال مستوىً من الابداع الفني لانظير له في أية ناحية أخرى.

وديوان «بيام مشرق» كتبه إقبال ــ كما يقول هو نفسه ــ جواباً لشاعر الألمان الأكبر «جوتيه» في ديوانه الشرقي.

كما يصفه جو دهري نذير أيضا بأنه رسالة أمل ، رسالة إلى عالم اليوم من قبل طبيب يعرف علله.. إن بصيرة اقبال في هذا الظلام الحالك، والضباب الذي يكتنف العالم الاسلامي قد رأت الفجر الموشك أن يبزغ في الأفق.. إن هذه البصيرة والايمان اللذين يفيض بهما بيام مشرق لهما الميراث الذي خلفه لنا إقبال».

و بعد فإن في شعر إقبال بصورة عامة سمات من الرمزية ومن التصوف..غير أن رمزية إقبال تختلف عن غيرها.. كما أن تصوفه يختلف أيضا، رمزية إقبال ليست رمزية الغموض اعني ليست من النوع الشائع المعروف.. كما أن تصوفه إنما هو تصوف الرجل المفكر المستنير نعم لم يكن تصوف إقبال من ذلك النوع الذي عرفه تاريخ المسلمين في بعض عصورهم المتأخرة، وكان من أكبر أسباب ضعفهم وتخلفهم.. إن شعر إقبال كله دعوة إلى الحياة وإلى العمل، دعوة إلى الاقدام وإلى التحرر من الكسل والتواكل والخمول، من الرق والعبودية.. ودعوة إلى المحافظة على الذات والتي هي روح فلسفة إقبال!

امض في الدنيا كنهر في جبال   وأعرف الأغوار فيها والنجودا
أو مثال السيل..فاجرف كل شيء   لا تباليه هبوطاً أو صعودا!

وقد كان من ثمار تفكير إقبال ــ كما هو معروف ومشهور ــ إنشاء دولة اسلامية كبرى في قسم واسع من تلك البلاد التي كان يطلق عليها الهند في عهد الاستعمار، ولم تكن سوى «باكستان» تلك الدولة الاسلامية الكبرى!

هذا هو محمد اقبال شاعر الاسلام في هذا العصر.. وأكبر الظن أنه سوف تمر عشرات السنين قبل أن تهيء الأقدار للشعوب الاسلامية شاعرا عبقريا آخر من هذا الطراز الرفيع.



كلمة عن شوقي

عاش فقيد اللغة العربية الأكبر المرحوم (احمد شوقي) طوال أيام حياته شاعرا مجيداً لا يبارى في ميدان الشعر حتى أُطلق عليه لقب (أمير الشعراء) تقديراً لمكانته السامية الرفيعة بين شعراء عصره، وتعبيرا عن معنى الاجلال والاكبار لنتاجه الخالد، وبيانه الذي سرى في النفوس سريان الكهرباء وأصبح يجري مجرى الأمثال في الانتشار والذيوع.

ولئن كان هذا الشاعر الكبير في أوائل عهده مقلداً أكثر منه مجدداً، كما يرى ذلك بعض الناقدين من معاصريه، وكان ـ كما يقولون ـ ينظم أشعاره على نمط ما كان القدماء ينظمون، وينحو نحوهم في الأسلوب والطريقة وفي المعاني أحياناً ويسير على سننهم في الموضوعات التي كان يطرقها. أقول لئن كان شوقي كذلك، أو على الأصح لئن اعتبره أولئك الناقدون مقلداً أكثر منه مجدداً للأسباب السالفة فان تقليده لم يكن ككل تقليد، كان تقليد شوقي جيداً ممتازاً، بل كان تقليد شوقي نوعاً جديداً يختلف ويسمو عن سواه، ولسنا إلا مصيبين إذا قلنا ان تقليد شوقي في حياته الشعرية الأولى إنما كان نوعا من أنواع التجديد.

والآن فلننظر فيم وعلام يحاول بعض الناقدين انزال شوقي من منزلته السامية التي وصل إليها باستحقاق وجدارة؟ ولماذا هم يصفونه بأنه لم يكن مجدداً في الشعر وانه لم يكن إلا مقلداً لايختلف عن سواه من المقلدين؟ والجواب سهل وبسيط، لم ير هؤلاء لشوقي في أوائل حياته إلا مجموعة قصائد أكثرها يدور حول المدح والرثاء وما إليهما، وقليل منها في الغزل والاجتماع، فقالوا إنه مقلد وإنه لم يجدد شيئاً ولم يكتشف باباً جديداً فيه، ولم ينهج نهج شعراء الغرب في تأليف القصص والروايات إلى آخر ما يقولون.

ولقد يكون فيما يقوله هؤلاء جانب من الحق، لايرتاب فيه مرتاب، ولكن كما أن فيه هذا الجانب الذي أشرنا إليه، فان فيه أيضا تعسفاً في الحكم وخطأً في الرأي، ومجانبة للانصاف، نعم لم ينهج شوقي في عهده الأول نهج شعراء الغرب في تأليف الروايات والقصص، وهذا وحده هو الذي يصح أن يكون جانب الحق في اعتراضات المعترضين.

وفي جهرنا بهذا القول شيء كثير من التسامح لأن الفن الروائي في الشعر وفي النثر إن صح أن يكون تجديداً لأنه أكثر التئاماً مع الذوق الأدبي اليوم فان الأديب إذا لم يكن له فيه نصيب، وإذا لم يجعل منه ميدانا ليراعه وتفكيره فليس هذا بالذي يستحق أن يؤاخذه عليه الناقدون. إن القصص والروايات ليست مقياساً للحكم على الشعراء والكتاب ان جالت اقلامهم فيه استحقوا الاطراء والتقدير، وإذا لم يكتبوا أو ينظموا فيهما شيئاً أصبحوا هدفاً للنقد

والانتقاص، كلا فان كل كاتب أو شاعر إنما يكتب حسب النزعة التي ينزع إليها، والميدان الذي يختاره لنفسه والميول التي يتجه إليها، وما مقياس الحكم هنا إلا الفن والاجادة فيه والا المعاني والأساليب يأتي بها كل من الكاتب والشاعر مائسة في حلة بديعة من حلل الروعة والابداع (١).

وشاعرنا شوقي وإن لم يكن في عهده السابق قد نظم قصصاً وروايات فلم يكن هذا بضائره وهو وإن كان قد سار على طرق القدماء ونحا نحوهم إلا أنه كان المتفوق الممتاز كشاعر فنان، وكان في شعره عبقرية وحياة، وكانت شاعريته تلك الشاعرية الملهمة الفياضة بصنوف الجمال، والمتسمة بسمات صدق التعبير والاحساس وسمو العاطفة والروح، لقد اجتمعت في شعر شوقي كل العناصر الحية الصالحة، أجل لقد كان شوقي شاعراً عبقرياً وكفى! وكان شاعراً مجدداً يمثل الزمن الذي عاش فيه، وطبيعة العصر والبيئة والظروف التي مازجها ومازجته وكفى بكل ما ذكر دليلا و برهانا على بطلان ما يزعمه ناقدوه.

و بعد فقد برهن شوقي أيضا أنه السابق في الميدان الذي اختاروه له، أثبت هذا الشاعر العبقري أنه المجيد في حلبة البيان كشاعر روائي.. وهذه رواياته المبتكرة التي انتجتها عبقريته في العهد الأخير براهين على ذلك.. قرأ الناس لشوقي رواياته وأقاصيصه الشعرية فأعجبوا بها كل الاعجاب وأكبروا ما فيها من آيات البيان والحكمة، وهنا قطعت جهيزة قول كل خطيب، وهنا لم يبق مقال لقائل، ولم يبق اعتراض لمعترض، أو مكابرة لمكابر. ففي (.مصرع كليوباطرة) و(مجنون ليلى) و(قمبيز) و(على بك) و(عنترة) ثم (أميرة الاندلس) أجل في هذه الروايات المبتكرة الطريفة وجد أبناء العربية شاعرهم الفذ محلّقاً في سماء العبقرية والنبوغ.. وجدوه لايقل مكانةً عن أشهر شعراء أوربا في العهد الحديث.. ولعمري لو أتيح لشوقي أن يعيش أعواماً أخرى. إذن لكان له في هذا المجال جولات وجولات.. لقد كان هذا الشاعر العظيم ــ كما شهده الناس في السنوات الأخيرة ــ مهتما بمواصلة الجهود، ومتابعة التأليف والنشر في عالم القصص الفنية نثراً ونظماً.. خطة شاء أن يرسمها لنفسه أخيراً، ولقد نجح فيما استطاع ابرازه للناس، وكان نجاحه ــ ولا جدال ــ عظيماً.



---

(١) المنهل: صفر ١٣٥٧ هـ

شاعرنا طرفة بن العَبد

عشرون عاماً، أو عشرون عاماً فقط على أرجح الروايات.. عشرون عاماً يعيشها طرفة بن العبد، شاعرنا القديم النابه.. هي والله مما يدعو إلى العجب عندما ننظر إلى ضخامة شعره.. ونقارن بينه و بين فحول شعراء عصره الجاهلي، ومن بينهم، وفي طليعتهم شعراء المعلقات.

بل أية ميزة يتميز بها شاعرنا طرفة بن العبد، أكثر من أنه ــ على قصر حياته ــ معدودٌ في الرعيل الأ ول بين شعراء المعلقات هؤلاء!

شاعرنا طرفة بن العبد شاعر متميز ولا ريب.. يلمس في شعره كل من يقرأه أو يستمع اليه، روعة تملك الشعور، وتهز النفس.. لسبب وحيد هو أنه من شعراء العبقرية وقد ارغمت هذه العبقرية عمالقة شعراء العصر الجاهلي وغيرهم من شعراء ما بعد ظهور الاسلام على أن يعترفوا بهذه الشاعرية المبدعة لهذا الشاعر الشاب، برغم اعتزازهم وما كانوا يحملونه في نفوسهم من تيه وعنجهية وغرور!

شيء آخر كان خليقاً بأن يلفت الأنظار إلى طرفة بن العبد.. ذلك هو ما اتسمت به حياته القصيرة من ميل إلى المغامرة.. لقد كان هذا الشاعر الشاب مغامراً جريئاً من الطراز الأ ول بل أكاد أقول ومتهوراً. وحسبنا أن نقرأ من نوادر قصصه أنه كان نقادة لا يعبأ بانسان.. كان يقول كلمته ويمشي غير هياب،

كان طرفة مولعاً بالسخرية أيضاً، بلغ من أمره في سخريته وجرأته تعرضه لشاعر كان ينشد شعراً في وصف الجمل، في مجلس ملك الحيرة «عمرو بن هند» فوصف الجمل بوصف من أوصاف النوق، فقال طرفة على الفور: «استنوق الجمل» وأصبحت هذه الكلمة مثلاً من الأمثال!

و يهجو طرفة زوج أخته «عبد عمرو» بن بشر بن مرثد، وكان كما يصفونه سيد أهل زمانه، ومن المقربين لدى عمرو بن هند يهجوه طرفة لا لأمرٍ ذي بال وانما لأن أخته شكت إليه شيئاً من أمر زوجها، فقال يهجوه:

لـقـد عـلـم الأقـوام أنـا بـنـجـوة | علـت شـرفـا من أن تُضام وتُشتما
لـنـا هـضـبـة لايدخل الذل وسطها | و يـأوي إلـيـهـا المستجير فيعصما
وأرعـن مـثـل الـلـيـل مجـر يـقـوده | أريـب إذا مـا سـاور الأمـر أبـرمـا
شـديد القوى ضخم الدسيعة مقول | أبـى إذا مـا هـم بـالأمـر الحـمـا
فـأي خمـيـس لا أبـانـا نـهـابـه | واسـيـافـنـا يـقـطـرن من كبشه دما
أبـي أنـزل الجـبـار عـامـل رمحـه | وعمي الذي أردى الرئيس المعَّمما
فـواعـجـبـا مـن عـبـد عـمـرو و بغيه | لـقـد رام ظـلـمـي عبد عمرو فأنعما
ولا عـيـب فـيـه غير أن لـه غـنـىً | وأن لـه كـشـحـاً إذا قـام أهـضـمـا
وأن نـسـاء الحـي يـعـكـفـن حـولـه | يـقـلـن عـسـيـبٌ مـن سرارة ملهما

فأي هجاء مقذع هذا؟ وأي اعتداد بالذات تقمصه هذا الفتى؟ إنه يبدأ أولا بالاشادة بنفسه وبقومه، وبأبيه الذي أنزل الجبار عامل رمحه، وبعمه الذي أردى الرئيس المعَّمما، ثم يهوي إلى مهجوّه في عنف وفي قوة، وفي سخرية وتهكم يكفي أن يجعله ملهاة لنساء الحي يعكفن حوله، و يعبثن به، و يقلن عنه.. و يقلن..

وقد رأيت أن عبد عمرو هذا كان من الخلصاء المقربين لدى ملك الحيرة عمرو بن هند وقد عرف هذا الموتور كيف ينتقم، خرج يوماً للصيد في معية عمرو بن هند، وأمعن عمرو بن هند في الطلب فانقطع بنفر من أصحابه حتى أصاب حماراً وحشيا فعقره وقال لعبد عمرو: انزل إليه فنزل فأعياه فضحك عمرو بن هند ثم قال لأصحابه: اجمعوا حطباً وأوقدوا فأوقدوا ناراً وشوى فبينما عمر بن هند يأكل من شوائه وعبد عمرو يقدم إليه إذ نظر إلى قميصه متخرقا فأبصر كشحه فقال له لقد أبصر طرفة حُسن كشحك حين قال:

ولا عيب فيه غير أن له غنى | وأن له كشحاً إذا قام أهضما

فغضب عبد عمرو من ذلك، وأنف وقال له: أبيت اللعن لقد قال فيك ما هو شر من ذلك وأقبح، قال عمرو بن هند: أو قد بلغ من أمره هذا؟ قال نعم! قال فما قال فاسمعه ما قال فيه طرفة من الهجاء، وفيه يقول:

لـعـمـرك إن قـابـوس بـن هـنـد
لـيـخـلـط مـلـكـه نـوك كـبـير

إلى أن يقول:

فـلـمـا أن أنـخـت على مـلـيـكٍ
مـسـاكـنـه الخورنـق والـسـديـر
لـيـنـجـزني مواعـد كـاذبـات
بـطـي صـحـيـفـة فـيـهـا غـرور

فأوعدني وأخلف ثم ظني — وبئس خليقة الملك الفجورُ

وكان من سوء حظ طرفة أن هجاءه لعمرو بن هند ملك الحيرة هو الذي قاده إلى حتفه في نهاية المطاف.

فعندما جاء المتلمس الشاعر خال طرفة إلى عمرو بن هند وكان معه طرفة يلتمسان رفده وكان المتلمس قد هجا عمراً أيضا. فما كان من ابن هند إلا أن كتب لهما كتابا إلى عامله في البحرين وقال لهما انطلقا فخذا جوائزكما منه.. فخرجا!

وأحسَّ المتلمس أن في هذا الكتاب أو في هذه الصحيفة شيئاً، فينصح طرفة في حديث طويل يقول فيه: إنه من الخير أن ننظر في كتبنا هذه فان يكن رأي ملك الحيرة قد أمر لنا بخير مضينا، وإن تكن الأخرى لم نهلك أنفسنا.

فهل يستمع طرفة إلى هذا النصح؟ كلا إنه يركب رأسه.. و يرفض النظر في كتاب الملك، و يذهب المتلمس لينظر في صحيفته ـــ وقد ذهبت فيما بعد مثلا.. فاذا الذي يجد فيها: «باسمك اللهم من عمرو بن هند إلى المكعبر إذا جاءك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يده ورجله وادفنه حياً!».

ولا يتردد المتلمس بعد ذاك في أن يخبر ابن اخته بالذي ورد في الكتاب. ثم ينهاه عن الذهاب إلى عامل البحرين، فيقول طرفة وهو ـــ إن صحت الرواية ـــ يدل على منتهي الغرور.. يقول طرفة لخاله المتلمس: إن كان قد اجترأ عليك فما كان ليجترىء علي.. فلما غلب المتلمس على أمره القى بصحيفته في نهر الحيرة ثم خرج هارباً إلى الشام.

و يذهب طرفة إلى عامل البحرين، و ينفذ فيه القتل.. و يؤرخ المؤرخون موت هذا الشاعر في أواسط القرن السادس للميلاد.

أمر طبيعي ـــ اذن ـــ أن تكون هذه هي نهاية شاعرنا الفتى بعد أن صدر منه ما صدر من هجائه المقذع لعمرو بن هند، غير ما سبق أن قاله من هجائيات لأشخاص كل منهم يرى أنه السيد المرموق!

وكان بامكانه أن ينجو من هذا القتل بعد أن أتاح له خاله المتلمس أسباب النجاء ـــ كما رأيت ـــ لولا غروره واعتداده بذاته، واعتقاده الواهم أن احداً لايمكن أن يناله بسوء.

نعم مات طرفة بن العبد في سن العشرين ـــ على الأرجح ـــ ولكن بعد أن ترك ثروةً من الشعر العالي الرصين، ولا ريب أنه ترك من هذا الشعر ما لم يتركه معظم من تقدمت بهم السن من شعراء الجاهلية الفحول.

وكان طرفة شاعراً مقلاً بطبيعة الحال بحكم حياته القصيرة، غير أن اقلاله لم يخفض من مكانته كما رأينا بل رفعه إلى مكان البارزين من شعراء المعلقات.

وحسب طرفة أن يشهد له أفصح الخلق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وذلك عندما سمع هذا البيت من شعر طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... و يأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال صلوات الله وسلامه عليه: «هو من كلام النبوة»

والحق أن من ميزات شعر طرفة شيوع الحكمة في أغلب شعره، بل إن الحكمة في شعره تكاد تكون سمته الواضحة بالرغم من أن حياته كانت تتسم بالعبث والانطلاق!

ومن أمثلة شعره في الحكمة قوله:

الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

وقوله:

لعمرك ماتدري الطوارق بالحصى ... ولا زاجرات الطير ماالله فاعل

وقوله وهو في السجن:

أبا منذر كانت غرورا صحيفتي ... ولم أعطكم بالطوع مالي ولا عرضي
أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقوله:

أسلمني قومي ولم يغضبوا ... لسوأة حلت بهم فادحه
وكلهم أروغُ من ثعلب ... ما أشبه الليلة بالبارحه!

ومن شعره هذه الأبيات المتداولة، وهي مما قاله في صغره:

يالك من قبُّرة بمعمرِ ... خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقِّري ما شئتِ أن تنقِّري ... قد ذهب الصياد عنك فابشري
ورفع الفخ فماذا تحذري ... لابد يوماً أن تصادي فاصبري!

و يقول طرفة أيضاً وهو مما يدل أبلغ دلالة على مدى تعمقه في فهم الحياة والأحياء.

وأعلم علما ليس بالظن أنه — اذا ذل مولى المرء فهو ذليل!
وأن لسان المرء ما لم تكن له — حصاة على عوراته لدليل!

على أن أخلد روائع شعر شاعرنا طرفة بن العبد دون جدال هي معلقته الشهيرة، وكان سبب نظمه لها أن أخاه معبداً كانت له إبل ضلّت فأراد طرفة أن يستعين بابن عمه «مالك» في طلبها، فلما ذهب إليه أعرض عنه مالك وقال له: «فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها» فقال معلقته وفيها يعاتب ابن عمه على إعراضه عنه و يعاتب أعمامه لأنهم كانوا ظلموه ومنعوا عنه حقه، وأبو إعطاءه إرثه من أبيه.

وما أشك في أن حياة طرفة بن العبد المضطربة، وكانت أشبه بحياة التشرد إنما كانت نتيجة ما لحقه من ظلم أعمامه وظلم ابن عمه مالك هذا.. وأكاد أقول إنه ظلم البيئة التي عاش فيها، وكان حتماً في بيئة كهذه أن يظل طرفة وهو الشاعر المرهف الحس، يحيا حياته المضطربة هذه.. وأن يتبلور شعوره بهذا الظلم يلحقه من ذوي قرابته، وإنك لتجد صدى شعوره هذا الأليم في قوله:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة — على المرء من وقع الحسام المهنّدِ

واستمع إليه يقول في معلقته واصفا نفسه مفتخرا بها:

اذا القوم قالوا من فتى خلت أنني — عنيتُ فلم اكسل ولم أتبلّدِ
ولست بحلال التلال مخافة — ولكن من يسترفد القوم يرفدِ
فان تبغني في حلقة القوم تلقني — وإن تلتمسني في الحوانيت تصطدِ
وإن يلتقي الحي الجميع تلاقني — إلى ذروة البيت الشريف المصّمدِ

إلى أن يقول:

رأيت بني غبراء لاينكرونني — ولا أهل هذاك الطراف الممدّد
ألا ياهذا الزاجري احضر الوغى — وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي — فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ومنها في الحكمة:

أرى الموت يعتام الكرام و يصطفي — عقيلة مال الفاحش المتشدّدِ
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلةِ — وما تنقص الأ يام والدهر ينفدِ
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى — لكا لطول المرخي وثنياه باليد

متى ما يشأ يوما يقده لحتفه ومن يك في حبل المنية ينقدِ
فمالي أراني وابن عمي مالكاً متى ادن منه ينأ عني و يبعدِ
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهَّندِ

وأخيرا:

إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني منيعاً إذا بلت بقائمه يدي
فان مت فانعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب ياابنةمعبدِ
ولا تجعليني كامريء ليس همه كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي
فلو كنت وغلاً في الرجال لضَّرني عداوة ذي الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عني الرجالجراءتي عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي
لعمرك ما أمري على بغمة نهاري ولاليلي عليّ بسرمدِ
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً..ما أقرب اليوم من غدِ
ستبدي لك الأ يام ما كنت جاهلا و يأتيك بالأخبارمن لم تزودِ
و يأتيك بالاخبارمن لم تبع له تباتاً ولم تضرب له وقت موعدِ

و بعد فهل هذا شعريقوله شاعرفي سن العشرين ؟

ولم لا ؟ إنها العبقرية ، ما في ذلك شك ! ولاشيء غير هذه العبقرية .

وليس هذا بالأمر الغريب ، فقد شهدت العصور، وشهد عصرنا هذا الذي نعيش فيه أمثلةً حيةً من شعراء عاشوا في عمر الزهور، وكان شعرهم مثلاً حياً من شعر الحكمة ، والتفرد والعبقرية.. ولنذكر هنا على سبيل المثال: «فوزي المعلوف»و«أبا القاسم الشابي»و«ابراهيم طوقان»و«التيجاني يوسف بشير» .



شعراء الوطنية

ومن أحق من مؤرخ الحركة الوطنية في مصر «عبدالرحمن الرافعي» بأن يؤرخ لشعراء الوطنية فيها ؟

وقد يكون من تحصيل الحاصل الاشادة بمؤلفات هذا الباحث الكبير، ولعله يكفي أن أشير هنا إلى مؤلفه الضخم في تاريخ الحركة القومية في مصر، وهو في أكثر من عشر مجلدات، تعتبر أوفى مرجع لتاريخ مصر الحديث.

وكتابه هذا «شعراء الوطنية» يحوي تراجم شيقة لخمسة عشر شاعراً من شعراء مصر منذ القرن الماضي «التاسع عشر» حتى العهد الأخير.

وكأنما أحس بعد أن اشتهر وعرفه الناس متفرغا للناحية السياسية احس أن الناس لابد أن يتساءلوا عن بواعث تأليفه كتاباً عن شعراء الوطنية فنراه يقول :

«عندما أرخت الحركة القومية في أدوارها المتعاقبة تبينت مبلغ ما للشعر الوطني من أثر عميق في التمهيد لها و بعثها وإذكاء الروح الوطنية في نفوس المواطنين وتسجيل الحوادث الهامة في تاريخ مصر القومي ومن يومئذ وانا تواق إلى أن أخصص لشعراء الوطنية سفراً منفرداً يجمع معظم ما جادت بهم قرائحهم من الشعر الوطني مع التعريف بشخصياتهم وذكر المناسبات التي أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية.

أما طريقته في التعريف بشخصيات هؤلاء الشعراء فهي طريقة المؤرخ الباحث المستقصي، فهو يلخص حياة من يترجم له منهم دون أن يفوته أن يشير إلى أهم ما ينبغي أن يشار إليه من الحوادث التي مرت بحياة الشاعر، ثم لايفوته أن يحلل إلى جانب ذلك و يوازن و يبدي رأيه صريحاً في شعره دون أن نلحظ في نقده أي غض من مكانة الشاعر المنقود.

يتحدث عن رفاعة رافع الطهطاوي و يبدي رأيه في شعره فيقول : «..وهو أول رائد لنهضة العلم والأدب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان شاعراً رقيقاً بالقياس إلى عصره، أشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقاها من إيمانه الصادق،وحب الوطن من الايمان.. ومن فطرته السليمة، وخلوص نيته، وقد استثار رحيله من مصر إلى فرنسا عاطفته الوطنية العميقة المتأصلة في نفسه الحساسة فجادت قريحته وهو في باريس بقصيدة عبر فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله والاشادة بمفاخره قال في مطلعها :

ناح الحمام على غصون البانِ فأباح شيمة مغرمٍ ولهان

ثم يقول عنه في آخر الترجمة: «وإذا تأملت في شعر رفاعة رافع الذي نقلنا طرفاً منه وجدت فيه تقدما نسبياً اذا قارنته باسلوب شعراء المدرسة القديمة التي سبقته كالشبراوي، والعطار، والخشاب، وغيرهم، و يعد شعر ودور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التي حمل لواءها البارودي واسماعيل صبري وشوقي وحافظ

حقا إننا اذا وضعناه إلى جانب شعر شوقي مثلا لجاء في المرتبة الثالثة أو الرابعة ولكن يجب الآ ننسى أن رفاعة رافع نشأ في عصر كانت اللغة العربية وآدابها في دور تأخرها واضمحلالها فله على نهضة الشعر والأدب فضل لاينكر.

بهذا الأسلوب الرقيق ينقد عبدالرحمن الرافعي شعراء كتابه، و يوازن بينهم، و يضع كل واحد منهم في مكانه في انصاف، إنه اسلوب في النقد يجب أن يُحتذى!

ثم ينتقل الرافعي إلى عبدالله النديم الذي يرى أن المعاني الوطنية تجددت في شعره، بعد أن ظل الشعر في مصر خاليا منها بعد وفاة رفاعة رافع.

ثم يتحدث عن البارودي في إيجاز، و يشير إلى حياته في المنفى، فيقول:

«..وتجلت في منفاه صفاته العالية من الشمم، وعلو النفس، واحتمل آلام النفس بشجاعة وإباء، وصبر وإيمان، وله في ذلك شعر يفيض بهذه المعاني السامية قال وهو في سرنديب:

لم اقترف زلة تقضي على بما اصبحت فيه فماذا الويل والحربُ
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنبُ أُدان به ظلماً واغترب
فلا يظن بي الحساد مندمة فانني صابر في الله محتسبُ
أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت أيدي الحوادث مني فهو مكتسبُ
لايخفض البؤس نفساً وهي عالية ولا يشيد بذكر الخامل النسبُ

تأمل أيها القارىء في قوله «أثريت مجداً» الوارد في البيت الرابع وترحم معي على أول من أقام للشعر العربي في العصر الحديث دولة شامخة البنيان!!

ونلاحظ أن الرافعي يتخير من أجود ما قاله شعراء كتابه.. حتى ولو كان من شعرهم الذائع المشهور، كما ترى في هذه الأ بيات التي يكاد كل متأدب يحفظها عن البارودي وهي:

امطري لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضي آبار تكرور تبرا!

أنا إن عشت لست اعدم قوتاً وإذا مت لست اعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي نفسُ حرٍ ترى المذلة كفرا

ومن شعر البارودي في منفاه قصيدته الخالدة:

ردوا على الصبا من عصري الخالي وهل يعود سواد اللِّمةِ البالي

والتي يقول فيها:

لاعيب فيَّ سوى حرية ملكت أعنتي عن قبول الذل بالمال!
قلبي سليمٌ ونفسي حرة و يدي مأمونة ولساني غير ختال
بلوت دهري فما أحمدت سيرته في سابق من لياليه ولا تالي
حلبت شطريه من يسر ومعسرةٍ وذقت طعميه من خصب وإمحالِ

و يقول أيضا:

علام أجزع والأيام تشهد لي بصدق ما كان من وسمي وإغفالي؟
راجعت فهرس آثاري فما لمحت بصيرتي فيه ما يزري بأعمالي!
فكيف ينكر قومي فضل بادرتي وقد سرت حكمي فيهم وأمثالي؟
أنا ابن قولي وحسبي في الفخار به وإن غدوت كريم العم والخال!

و يتحدث الرافعي عن «اسماعيل صبري» استاذ الشعراء فيقول عنه: «كان علماً من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث وثانيهم بعد البارودي».

ومن شعر اسماعيل صبري هذه الأبيات، وهي تدل على مقدار ما يحمله من إباء وعزة نفس وإحساس بالكرامة، يقول:

أيها التائه المدل علينا و يك! قل لي: من أنت؟ إني نسيت
لو فرشت الطريق دراً لأخطو فوقه نحو داركم ما رضيت
أنا أغنى من أن يقال فلانٌ وفلان تزاورا.. ما حييتُ

ثم يتحدث عن شوقي وحافظ فيقول عنهما في ترجمته لشوقي:
«بلغ الشعر الوطني ذروته على لسان شوقي وحافظ، فقدحملا لواء النهضة الشعرية في العصر الحديث، وتغنيا بالوطنية وكان للحوادث الكبري التي وقعت في مصر والشرق صداها في شعرهما، وكلاهما كان له أثره وفضله في تغذية الحركة الوطنية بعيون الشعر الوطني، سطع نجمهما في عصر واحد، وغرَّدا في جيل واحد، وانتقلا إلى جوار ربهما في عام واحد «١٩٣٢» ولم تمض على وفاة حافظ ثلاثة أشهر حتى لحق به شوقي في الرفيق الأعلى»

ثم يقول بعد ذلك عن شوقي مشيراً إلى تلقيبه بأمير الشعراء، وما يحسن أن يلقب به الآن.

سمي شوقي أمير الشعراء، إلى أن يقول: إن شوقي أكبر من أن يمجّد بهذا اللقب.. ثم يقول: فهل نسميه زعيم الشعراء؟ إنه ولا ريب أقدر شعراء عصره، ولم يكن ينازعه في زعامة الشعراء أحد من أنداده ومعاصريه، فلقد عقدوا له لواء الزعامة، وبايعوه عليها في المهرجان الذي أقيم له بمصر سنة ١٩٢٧م وجمع أقطاب الشعراء من العالم العربي وخاطبه فيه صنوه حافظ بقوله:

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً وهذي وفود الشعر قد بايعت معي

على أن لقب زعيم الشعراء لايكفي للتعريف به، والتنويه بمكانته، وخير لقب له أن يسمى «شاعر العربية الأكبر» وأن نسميه في هذا الكتاب «شاعر الوطنية الأكبر»

هذا ما يقوله عبدالرحمن الرافعي، فما رأي أعلام الأدب والنقد في ذلك؟

وقد أكثر المؤلف في الاختيار من شعر شوقي فبلغت صفحات التعريف به وبشعره (٥٤) صفحة من الكتاب على حين أن البارودي كان نصيبه أقل من الربع من هذه الصفحات.

ثم يتحدث عن شاعر الحرية «خليل مطران» فيقول عنه «شاعر الحرية والعروبة، «حمل لواء التجديد في الشعر نيفاً ونصف قرن من الزمان، وبلغ الذروة في عالم الشعر والفن والبلاغة والخيال».

ثم يقول عنه: «كان إنسانا في شخصه وفي أخلاقه، وفي شعره وفي أدبه، كان في شعره ينشد الكمال، ويحلق في أجواء الحرية والوطنية.

كان يستلهم شعره من المثل العليا، وفي ذلك يقول عن نفسه في الاحتفال بيوبيله الذهبي سنة ١٩٤٨م:

كان في الشعر لي مرام خطيرٌ فعدا طوقي المرامُ الخطيرُ
هائم في الوجود إساله الوحي كما يسأل الغني الفقير
أكبروني ولست أكبر نفسي أنا في الفن مستفيدُ صغيرُ
لايضيق صدر شاعر بأخيه يكره الفضل أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملت فيها ليس تحصي شموسها والبدور

ثم يقول الرافعي عن الخليل:

«وبهذه الروح العالية، والنفس الصافية، والود الخالص، والايثار، والأريحية، عاش محبوباً من معاصريه، يحبهم ويحبونه.. وينشد لهم الخير والكمال.

وقد أرخ في شعره الوطني العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية وسجل حوادثها ووقائعها، وترجم لرجالها وأشخاصها، وغذى بقصائده الروح الوطنية جيلاً بعد جيل».

ثم يتحدث عن «أحمد محرم» و«أحمد نسيم» و«احمد الكاشف» وهم الشعراء الثلاثة الأحامدة المعاصرون من شعراء الحزب الوطني وأولهم محرم.

ويقول الرافعي عن احمد محرم: «شاعر ملهم من شعراء الوطنية والأخلاق كان ادباء الجيل يضعونه في صف حافظ ومطران».

وقد عرف عن محرم أنه اسلامي النزعة إلى جانب أنه شاعر وطني كبير، وهو ما لم يتفق لسواه من معاصريه، إذا استثنينا شوقي ومصطفى صادق الرافعي!

شاعر آخر وطني شهير، كان له دوره، وخاصة في ثورة مصر سنة ١٩١٩م إنه الشاعر البدوي كما يصفونه: محمد عبدالمطلب.

يقول عنه الرافعي: «ولد سنة ١٨٧٠م.. لأبوين عربيين مصريين من سلالة قبيلة جهينة احدى قبائل جزيرة العرب».

وشاعرية محمد عبدالمطلب قوية، وشعره جزل يحاكي فيه القدماء، واكثر موضوعات قصائده في الوطنيات وفي ثورة مصر ١٩١٩م

يقول من قصيدة في هذا المعنى:

مصر أمي فداء أمي حياتي ... سلمت أمنا من العاديات
يارياح الحياة في مصر هبي ... روحينا بطيب ريَّا الحياةِ
ياسماء الحياة في مصر جودي ... أنفسا فوق نيلها صادياتِ
ما لأم الأمصار حمّلها ... الدهر صنوف الآلام والموجعات

إلى آخر هذه الأبيات...

وللشاعر احمد زكي أبي شادي في هذا الكتاب مكان مرموق!

ثم عبد الحليم المصري من الشعراء الضباط وقد توفي هذا الشاعر في ريعان شبابه عام ١٩٢٢م

ثم شاعر الشباب والحرية والوطنية: عزيز فهمي: الشاعر الحر المجاهد الطموح.

إن شعر عزيز فهمي يهز النفس حقاً، إنه في الصميم من شعر الوطنية فلنستمع إليه في أبيات من قصيدة نظمها وهو في السجن سنة ١٩٤٦م يقول:

ذكرت مصر فهاجتني مواجعها — وعزني الدمع حتى كدت أبكيها!
يالائمي وأنا الجاني على كبدي — دع عنك لومي فان اللوم يغريها
كل يغني ليشجي سامراً وهوًى — وقد يغني لأوطار يرجِّيها
وليس لي سامر فيها ولا وطرٌ — ولازعمت جوادي من مذاكيها
وإنما هي آلامي أكتمها — حتى يضيق بها صدري فأحكيها
نزحت عنها فلم اعدل بها وطنا — وبات قلبي أسيرا في مغانيها
وصنت شعري إلا عن مفاتنها — وهمت في الأرض مسحورا بواديها
ورق شعري كما رقت جداولها — وراق وصفي كما راقت مجانيها
وما رأيت كناساً في جؤذره — ولا ذكرت غزالا في مراعيها

إلى أن يقول:

جارت عليها صروف الدهر واختلفت — أيدي الرماة..فآهاً من أعاديها
راشو لها السهم مسموما فشتتها — وكاد لولا يد الرحمن يصميها
وأثخنوها جراحاً في مقاتلها — ياللجريمة من عدوان آسيها

ثم يقول:

فزعت من شركٍ يلقيه غاصبها — قبل الجلاء لعل الوعد يغريها
وما الجلاء اذا شدت بسلسلة — من القيود وشرط الحلف يمليها
تشعب الرأي والأحزاب سادرة — ومصر صابرة والصبر يضنيها
وكيف تنهض من أسر يكبلها — والقيد آمرها.. والقيد ناهيها

شاعر آخر من شعراء الوطنية أشاد به المؤلف عبدالرحمن الرافعي واعني به «على الغاياتي».

والغاياتي من شعراء الوطنية الأوائل، وله ديوان مشهور اسمه «وطنيتي» حكمت عليه المحاكم بسببه بالسجن، فاضطر إلى الهجرة إلى سويسرا.



مِنَ السَّمَاء

هذا ديوان جديد للشاعر المصري المعروف الدكتور احمد زكي ابو شادي أصدره من أمريكا حيث يقيم منذ عام ١٩٤٦م مهاجرا اليها من موطنه القديم مصر.

والدكتور أبو شادي مهما اختلف النقاد في شأنه، وفي شاعريته، فهو شاعر فذ.. له شعره المقروء، وله دواوينه الشعرية وقد بلغت أكثر من خمسة عشر ديوانا. وله عدا ذلك نشاط ملحوظ في غير ميادين الشعر، فهو طبيب، وهو كاتب ناقد– ولعله في هذه الناحية أكثر تعمقا– وأخيرا لاينسى القراء مجلته التي كان يصدرها في القاهرة وهي خاصة بموضوع «تربية النحل» مما دل على سعة علمه وتعدد مناحيه، واستطاعته أن يعمل في أكثر من ميدان.

وهنالك مجلته الاولى «أبولو» وهي مجلة خاصة بالشعر، ونقد الشعر، لقد كانت هذه المجلة الأولى من نوعها في الأقطار العربية، وكانت شهرتها وذيوعها عظيمين، وكان تأثيرها الادبي على قصر المدة التي صدرت فيها– قويا بحيث نستطيع أن نقول: انها أوجدت «مدرسة» ذات طابع خاص، وطريقة خاصة، مازال متخرجوها يسيطرون على الحركة الشعرية إلى اليوم في مصر وغيرها من بلاد العروبة.

ويظهر أن ما لقيه هذا الشاعر من عنت خصومه من الأدباء وغيرهم، كان فوق ما تحتمله نفسية شاعر حساس كأبي شادي. فما هو إلا أن شد عصا ترحاله إلى العالم الجديد!

لقد اتخذ أبو شادي أمريكا وطنا ثانيا له، وهاهو الآن يعمل في صحافتها ولعله يشارك هناك كما هو العهد به في عدة ميادين أخر، من ميادين العمل والتفكير.

وقد كتب الشاعر مقدمة ديوانه الجديد «من السماء» بقلمه هو.. ولانشك في انك ستقول إذا ما قرأت هذه المقدمة إن أبا شادي كاتب ناقد موهوب، يجيد النقد والتحليل، ويجيد ذوق الشعر، فاسمعه حين يقول عن مقومات الشعر:

«للشعر مقومات تتنوع في تركيبها، ولكن لاينفرد أيها به، وأولى مقومات الشعر الصادق «التجربة الشعرية» أي تأثر الشاعر بعامل معين أو بأكثر، واستجابته إليه أو إليها استجابة انفعالية قد يكتنفها وقد لايكتنفها، ولكن لا تتخلى العاطفة ابداً عنها، إذ انهما حينما يبتعدان يتجرد الشعر من ابدع صفاته الأصليةو يصبح «نظما خلاباً»على أفضل تقدير أو ينعت «بشعر الذكاء» تجاوزاً» الخ.

فهذا التعريف لاحدى مقومات الشعر، تعريف صحيح ولاشك، اذ أن التجربة الشعرية، التي هي تأثر الشاعر بعامل معين، أي منظر معين، أو حادث معين.. هذه التجربة هي العنصر الأول من عناصر الشعر وكلما قويت العاطفة حيال هذه التجربة، ثم كلما كانت العناصر الأخرى للشعر قوية هي أيضا، كان الشعر حريا بأن يسمى شعراً.. وحريا بأن يهز النفوس.

وما ادق وصف الدكتور أبي شادي للشعر الذي يخلو من التجربة أو العاطفة في وصفه له أنه «شعر خلاب» أو انه «ينعت بشعر الذكاء» إنه بهذه الدقة في الوصف قد استطاع أن يخرج طائفة كبيرة جداً من منظومات الشعراء قديما وحديثا من مجموعة الشعر الصحيح!

ولعل اشعار المناسبات تمتاز قبل غيرها بأن أكثرها ــ ولا أقول كلها ــ من هذا الشعر الخلاب، وقد يكون قسم كبير منها من شعر الذكاء.

ومن هذا النوع الخلاب أكثر ما يقرأ من شعر الغزل. حيث ينظم الشاعر شعراً يسميه غزليا. وهو انما ينظمه تقليدا ومحاكاة من غير أن يحمل قلبه أي عاطفة من عواطف الحب الصميم!

والآن ما هو القول في شعر أبي شادي نفسه، على ضوء تعريفه السابق؟ وبديهي أننا هنا لانعني مجموع شعره في دواوينه القديمة، فقد يكون الرأي في ذلك قد انتهى، وقد يكون مجال الخلف مازال شاسعاً بين ناقدي الدكتور.

وانما نعني مجموعة شعره الجديد، في ديوانه الجديد «من السماء».

وأول ما يتبادر للذهن من هذا الاسم الذي اختاره الشاعر لديوانه، ولكن لابأس فمن حق الشعراء أن يغفر الناس لهم بعض الشذوذ ومن حقهم أن يعيشوا في عوالم خاصة، ومن حقهم أن يحلموا، بل من حقهم أن يأتوا أحيانا بالمفارقات وأن يكون الغموض نمطا من انماطهم، لأن المدرسة الرمزية في الشعر تفرض كل هذا الحق لشعرائها، وأبو شادي من محبذي الرمزية ــ كما يقول في مقدمة الديوان ــ وكثير من قصائد هذا الديوان نهج فيها المنهج الرمزي.

ولعل تسمية الديوان أتت، لأن القصيدة الأولى في الديوان عنوانها «من السماء» وفي هذه القصيدة يقول الشاعر:

قالت «الأرض» ما الشموس العوالي	في نجاء، وان تكن لا تبالي
في سحيق الآباد يوما ستخبو	وتلاقي مآلها من مآلي
انت ياشاعري تجازف بالحـــ	ـب إذا دمت عبد هذا الخيال

وقصيدته، أو مقطوعته التي عنوانها «الموتى المشردون» اظن انها تلفت نظرك لأنها تعبر عما يحسه الشاعر من مضاضة، ولانها تشير إلى ظاهرة عامة كثيراً ما يغفل عن امثالها شعراء الابراج العاجية، أو شعراء الترف الفني. قال الشاعر موجها خطابه إلى الملك فاروق:

مولاي حب الشعب أعظم ثروة ... لك من كنوز التاج والسلطان
كن انت رائده ووزع أرضه ... لبنيه كالفاروق في الاحسان!
ما شأن آلاف الفدادين التي ... هي كالمقابر للسواد العاني؟
ذهبوا بارجاء البلاد تشرداً ... وتكفنوا بمذلة وهوان
وجميعهم موتى وتلك لحودهم ... ملء الضياع الفخمة العمران
تركوا المقابر صاغرين فعيشهم ... ومماتهم بهوانهم سيان
وتجاوبوا بأنينهم وسقامهم ... وجراحهم في عالم البهتان
أنت العظيم فلا تدع اخلاصهم ... لك يستباح بلا هدى وأماني
بل لا تدعهم في الورى امثولة ... لتدهور الانسان بالانسان!

فهذا نوع من الشعر الحي الصادق، والتجربة فيه ماثلة، والعاطفة فيه قوية ثم هو شعر صادق لانه يعبر عن إحساس يكاد يكون عاما، انه احساس أمة وشعب لا احساس فرد يعيش في عالم من عوالم الحب والجمال، ينظم لاجل الفن، ولسان حاله يقول: «أنا و بعدي الطوفان».

وليس يعيب الشاعر أن ينظم متغنيا بالجمال، معبراً عن حبه الصادق.. ان حب الجمال من طبيعة الانسانية، وكلما قوى هذا الحب كان دليلا على الحس المرهف وسلامة الذوق ونبيل السجايا وانما الذي يعاب على الشاعر حقا ان يعيش منطو يا على نفسه لايشعر بما يشعر به الناس من آلام وآمال أو يساهم بأدبه في التعبير عن شعورهم في حرية وانطلاق، وصدق واخلاص.

وللشاعر ابي شادي في مواقف الحب والتغني بالجمال، جولات وجولات، ولعلك تجد في قصيدته «الحنين» صورة تعبيرية ناطقة عن حساسية الشاعر وشدة وله بالجمال، وحيرته في موقف الحبيبة منه وموقفه منها قال في هذه القصيدة:

كم يستبد الحنين! ... أواه لو تعلمين!
وكم يئن فؤادي ... وما شكوت الأنين
كأن باقي عذابي ... فروض نسك ودين
كأن طول احتمالي ... غنم بقلبي الغبين
ساءلت عني ولكن ... شكي يردُّ اليقين!
وكلما زدت قربا ... بعدت أو تبعدين

القاك نشوان لكن حزني بقلبي دفين
على جمال مضاع ما كان للعابثين
أولى به وحي فن ووحي حب أمين
لكم هتفت بشعري فبات شعري الثمين
وضع خمرا حلالا من فيك للظامئين
اصغي اليك بحلمي وأنت حلمي المبين
في حيرة لم تكيف على امتحان السنين
اصار حبي عزيزاً في حين حبي مهين!
أتحفلين بشعري ولست بي تحفلين؟

وعلى هذا الغرار تجد معظم قصائد الشاعر الغزلية، كقصيدته «الفن الضائع» التي يقول فيها:

لمن تمنحين الحب دوني عن عمد وماذا يرجى الحب من شاعر بعدي
وحسنك أولى أن يصان جلاله على الفن، حين الفن كالحسن للخد

و يضيق بنا المقام لو حاولنا أن نقف عند كل قصيدة من قصائد هذا الديوان إلا أننا نشير إلى ما أعجبنا به منها كقصائده «نجوى العيد» و«الاسكندرية الفنانة» و«الربيع» و«حوريات الماء» و«الأمواج» و«معركة الحب» و«قلب لايشيب» و«قبلة أعوام» و«رثاء اسمهان» و«رثاء احمد محرم» و«رثاء زوجتي» و«فني وحياتي» و«رثاء خليل مطران».



الشاعر محمود غنيم

الشاعر الذي أريد أن أتحدث عنه في هذا المقال، واستعرض شيئاً من شعره في القومية والسياسة والاجتماع، هو شاعر مرموق، من شعراء مصر حاملة لواء النهضة الفكرية في عالم العروبة والاسلام.

محمود غنيم.. شاعر معاصر من شعراء مصر، ومصر خليقة بكل إعجاب وإكبار، بمن أنجبت ولا تزال تنجب منذ أوائل عصر النهضة الحديثة في العالم العربي، من قادة للفكر، وأساطين في العلم والفن، ونوابغ في الشعر والبيان.

وحقيقة، قد يمكن أن يقال إن محمود غنيم، ليس أشعر شعراء مصر اليوم، وحقيقة قد لايعده بعضهم في الرعيل الأول.. وقد يقول فيه بعض نقاد المدرسة الشعرية الحديثة، أشياء وأشياء، ولكن الذي لاخلاف فيه، هو أنه شاعر مصر الاجتماعي الأول، في هذا الأوان، أو هو ــبحقــ خليفة شاعر النيل «حافظ ابراهيم» كما قال عنه ذلك كاتب عربي مهجري، معروف في الأوساط الأدبية، هو الاستاذ توفيق ضعون.

ولست أبعد، إذا قلت: إن شهرة محمود غنيم كشاعر، وعلى الخصوص فيما هو خارج حدود مصر من الأقطار العربية، هذه الشهرة قد بذت غيرها.. ولعل مرد ذلك هو إلى انفراد الشاعر بمزيتين، أولاهما: ميله الواضح إلى الوضوح، مع قوة في الأداء، وارتفاع في الأسلوب، وحسن انتقاء للألفاظ.. إلى جانب صدق العاطفة والاحساس وعدم إهمال الفكرة، أو الاغضاء عن وحدة الموضوع.

وطبيعي أن يتواءم مع هذا الميل إلى الوضوح، ابتعاده عن الرمزية.. وما الرمزية إلا بدعة شعرية، نشأت أول ما نشأت في الغرب، ووفدت إلى هذا الشرق العربي، أول ما وفدت، في مطلع القرن العشرين ولكن أتيح لها أن تبقي في ربوعه إلي اليوم، وإن كانت هي في وطنها الأوربي الفرنسي ــكما يظهرــ لم يبق لها الآن، ما كان لها بالأمس من قيمة أو احتفال.

أما ثانية هاتين المزيتين للشاعر محمود غنيم، فهي شعره الاجتماعي والقومي، إذ الواقع أن هذا الشاعر يكاد ينفرد بين شعراء الجيل الجديد في مصر، بأنه أكثرهم اتجاها إلى مواضيع

---

(١) مجلة الحج عدد ربيع الأول ١٣٦٨ هـ

الاجتماع، وإلى المواضيع القومية، فإذا كان ما يحدثه شعر الشاعر من أثر قوي في النفس، دليلا على صدق الشاعر في تعبيره الشعري، كان لنا أن نقول عن شعر محمود غنيم الاجتماعي والقومي: إنه شعر صادر عن إحساس عميق، وعاطفة جياشة، وإيمان بما يقول.. فلا تعمل ولا افتعال.

وديوان محمود غنيم «صرخة في واد» ـــوهو الديوان الذي نال جائزة الشعر الأولى، في مسابقة مجمع القاهرة للغة العربية لعام ١٩٤٧، كما أنه الديوان الأول للشاعرـــ حافل بمجموعة من أجود الشعر..وهذه المجموعة لا أظنها كل ما نظمه الشاعر، وإنما يبدو أنها مختارات من شعره من أول عهده بالشعر، حتى عام ١٩٤٧م.

ولعل طابع المحافظة..ـــ وهو ما يحاول شعراء المدرسة الحديثة في مصر أن يلصقوه بالشاعر محمود غنيمـــ يبدو جليا في طريقة الشاعر في تقسيمه لديوانه، إلى أبواب تسعة.. في «الحرب» و«الاجتماع» و«الوصف» و«المرأة» و«عبرات» و«تحيات» و«زفرات» و«دعابات» و«اشتات».. وهذه الطريقة هي الموسومة بها مدرسة حافظ وشوقي في مصر، والرصافي والشبيبي في العراق.

وليس الغرض هنا، أن نتحدث حديثا شاملا عن هذا الديوان، فقد يكون لهذا الحديث مجاله الآخر.. وإنما نريد أن نلقي نظرة على شيء من شعره الاجتماعي وبخاصة ما كان منه في الصميم.. من المواضيع الشرقية والاسلامية والعربية، وما يمس النضال بين الشرق والغرب، والحرية والاستعمار، وما يتصل بالحرب والسلام، واصفا أهوال الحرب، وآلام الانسانية من فعلها الوحشي الرهيب، وآمال الانسانية في السلام، أو في سراب السلام.. انظر إلى الشاعر، كيف يخاطب السلام في قصيدته «فجر السلام» وهي التي أنشأها عندما وضعت الحرب العالمية الأخيرة أوزارها، فيقول:

أدرك بفجرك عالما، مكروبا	عوذت فجرك أن يكون كذوبا!
ياأيها السلم المطل على الورى	طوبى لعهدك، أن يحقق، طوبى!
ما بال وجهك بعد طول حجابه	يحكي وجوه العاشقين شحوبا
رحماك طال الليل واتصل السرى	حتى تساقطت النفوس لغوبا
لفحت لظى الحرب الوجوه فطفبها	كالزهر نفحا والنسيم هبوبا
لم يبق في مجرى الدماء بقية	شكت العروق، من الدماء نضوبا
طحنت فريقيها الحروب بضرسها	لاغالبا رحمت، ولا مغلوبا

وعلى هذا النسق يمضي الشاعر في تصويره الدقيق لما جرته تلك الحرب من أهوال على العالم بأسره، أفرادا وجماعات إلى أن يصل إلى .. إلى يوم النصر! فيتساءل في مرارة عميقة، وألم دفين، عن أعراس هذا اليوم أين نقيمها؟

أعراس يوم النصر أين نقيمها؟ المدن صرن خرائبا، ولهيبا
هيهات أن تنسى البلاد حدادها أو تسترد جمالها المسلوبا!
تعدو الحضارة .. وهي داء فاتك وتسير في خطو الكسيح طبيبا

إلى أن يقول:

أمم بنت ركن الحضارة عاليا ما بالها، لم تأله تخريبا!
الأوصياء القيمون على الورى تركوا الورى بدمائهم مخضوبا
فرض القوى على الضعيف رقابة من ذا يكون على الرقيب رقيبا؟
من للرعيل ومن لقادته؟ لقد ضل الجميع مسالكا ودروبا!
خلوا مقاليد الشعوب لأمة عزلاء، تقنع بالكفاف نصيبا
القوت عنوان الحياة فماله أمسى يبيد ممالكا وشعوبا؟

وهكذا يعجب الشاعر من أمم بنت ركن الحضارة عاليا، ولكنها ما تنفك تعمل على تخريبه .. ومن أوصياء جعلوا من أنفسهم تطوعا واحتسابا، قيمين على الشعوب، ناسين أنهم تركوا الشعوب مخضوبة بالدماء. ومن قوى فرض رقابته على ضعيف .. ثم يسأل في سخرية ممضة ـــ وأكبر الظن أنه نسي في هذه اللحظة الشعرية هيئة الأمم المتحدة ـــ إنه يسأل، و يسأل: من ذا يكون رقيبا على الرقيب؟؟

وانت لا ترى الشاعر إلا ضارباً على هذا الوتر، كلما عرض في شعره لقضية الحرب والنصر والسلام، ففي قصيدته «لاح الهلال» يقول:

الغرب أولع بالدماء، فما ترى إلا قراعا فيه إثر قراع
يبتاع بالعمران نصراً زائفاً خسرت لعمرك صفقة المبتاع
لاحربه، أبقت، ولا بسلامه شفيت لنا كبد من الأوجاع
و يح السلام جنى القوى ثماره وكوى الضعيف بجمره اللذاع
مابال من أبدى الشجاعة في الوغى خاض السلام..فكان غير شجاع

إلى أن يقول:

خطوا الوثائق في المحيط فحينما أمنوا العدو..رموا بها في القاع

مضت الحروب بقدسها. فإذا بها ... في السلم بضعة أسطر ورقاع
كتب الشقاء لأمة مهضومة ... تجري وراء سرابها الخداع

وفي قصيدته بعنوان «جنازة السلام» ينعى هذا السلام. و ينعى معه أوربا، و يتحرق أسفا على:

طفل بريء ذاق من ... يد أمه كأس الحمام

وليست أم هذا الطفل البريء، إلا أوربا التي يقول عنها:

وضعته أوربا لنا ... ياليت أوربا عقام!

و يستمر في وصف هذا الطفل البريء، و يقول:

لهفي عليه ممزق الأو ... صال منتشر العظام!
عصفت به ريح الوغى ... عصفا وغطاه القتام

إلى أن يقول:

ليس السلام بسائد ... ما دام في الدنيا حطام!
ما الناس إلا الناس في ... عصر الضياء أو الظلام
سيان من سكن القصور الشـ ... ـم أو سكن الخيام
بسوى الدم المسفوح لا ... يروى لظامئهم أوام
وأحب ما وقعت عليه ... عيونهم جثث وهام
وهو ابن آدم ينتشي ... من خمرة الدم والمدام
الذئب كالانسان لو ... يتعلم الذئب النظام!!

أما قصيدة الشاعر «ثورة على الحضارة» فلعلها من أروع ما قيل في موضوعها فكرة وأسلوبا، فاسمع:

ذرعتم الجو أشبارا وأميالا ... وجبتم البحر أعماقا وأطوالا
فهل نقصتم هموم العيش خردلة؟ ... أو زدتمو في نعيم العيش مثقالا؟

إلى أن يقول:

إني أرى الناس مما زادوا رفاهية ... في العيش؟ زادوه تعقيدا وإشكالا
تجاوز العرف والعادات حدهما ... فأصبحا في رقاب الناس أغلالا
ياطالما حدثتني النفس قائلة ... أنحن أنعم أم اجدادنا بالا

ولك أن تتأمل بعد.. في هذا التصوير الصادق لمعائب الحضارة.. هذا التصوير الذي يتسم بسمة الشاعر الأصيلة في الميل إلى الوضوح.. ولكنه الوضوح الذي يتسامق على أصحاب الرمزية.. وأنصار الغموض على اعتبار أن الرمزية والغموض لديهم، هما معيار التجديد، ومقياس الفن، وميسم الجدة.. وعلامة المستقبلية.. فأي تصوير بلغ ما بلغ، يجعلك تتمثل أمامك ما تحسه في نفسك وتطالعه صباح مساء، من مثالب حضارة القرن العشرين المادية، كالذي تراه في هذه الأبيات:

تحضر الناس، حتى ما لمكرمة ... قدس لديهم، ولكن قدسوا المالا
في كل مملكة حرب منظمة ... تضم جيشين: ملاكا، وعمالا
يد السياسة. بالأخلاق قد عبثت ... وقوض العلم صرح الدين، فانهالا
البدو أكرم أخلاقا.. وأحسبهم ... لله أكثر تقديسا وإجلالا
قالوا: تألق نور العلم، قلت لهم: ... بل ناره أصبحت تزداد إشعالا!

ثم يقول:

ابن الحضارة، جسم دون عاطفة ... يكاد يحسبه رائيه تمثالا
رسالة الغرب، لا كانت رسالته ... كم سامنا باسمها خسفا وإذلالا
تغزو الحضارة أقواما، لتسعدهم ... والزنج أسعد من أربابها حالا

وقبل أن أختم هذا المقال، لابد لي من أن أشير إلى قصيدة «مجد الاسلام أو وقفة على طلل» التي يقول في أولها:

مالي وللنجم يرعاني وأرعاه؟ ... أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه
لي فيك ياليل آهات أرددها ... أواه لو أجدت المحزون، أواه!
لاتحسبني محبا يشتكي وصبا ... أهون بما في سبيل الحب ألقاه
إني تذكرت— والذكرى مؤرقة ... مجداً تليداً بأيدينا أضعناه!!
أنى اتجهت إلى الاسلام في بلد ... تجده كالطير، مقصوصا جناحاه!
و يح العروبة كان الكون مسرحها ... فأصبحت تتوارى في زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرفها ... و بات يملكنا شعب ملكناه
كم بالعراق، وكم بالهند ذو شجن ... شكا، فرددت الأهرام شكواه
بني العمومة. إن القرح مسكمو ... ومسنا.. نحن في الآلام أشباه

ولعل بيت القصيد الأول ، في هذه القصيدة ــ وكل بيت من أبياتها بيت قصيد ــ هو قوله :

ما بال شمل شعوب الضاد منصدعا ربّاه .. أدرك شعوب الضاد ، رباه !



مع شاعر العرب

شاعر العرب الكبير، أو الشاعر الأول بين طلائع الشعراء الأحرار، الذين طالما غنُّوا على وتر الدعوة إلى حرية الشعوب العربية، وهتفوا بأناشيد الاستقلال، وأهابوا بالعرب جميعاً على اختلاف الديار، إلى وجوب التحفز والنهوض من أجل حياة جديدة صالحة، حياة تليق بأمة عظيمة كالأمة العربية حملت راية الاسلام والنور والمدنية إلى العالم أجمع.. شاعر العرب الشيخ فؤاد الخطيب والذي يشهد له شعره بكل هذا الذي نقول، يقف مرفوع الرأس كشاعر سياسي واجتماعي من الطراز الأول إلى جانب الأوائل من نظرائه ومعاصريه.. إلى جانب «احمد شوقي» و«معروف الرصافي» و«حافظ ابراهيم» وغيرهم.

في حفل كبير ضم النخبة من رجالات الأدب والفكر، استمع الحاضرون إلى الشيخ فؤاد يلقي قصيدته الرائعة والتي بدأها بقوله:

من مهبط الوحي حول البيت والحرم ... تترى البشائر من خير ومن نعم
والدار قد شهد العهد الجديد لها ... بالفجر منبلجاً عن نهضة عمم
فبت من روعة الآثار أشهدها ... في حيرة وكأني كنت في حُلُم
فالبر يترعه العمران منتشراً ... ومن أراد نهوض الشعب لم ينم!

أجل.. ما أروعها من حقيقةٍ تقال هنا.. بل ما أروع الحقائق حين يتلقاها السامعون أو القارئون مياسةً في ثوب من الفن الرفيع، مزهوةً في بيتٍ من الشعر الصادق الجميل!

وإنها لاحدى الحقائق الكبرى هذا الذي نعنيه من ارادة حياة الشعب، وإرادة نهوض الشعب، وما ينبغي لهما.. فما من إنسان ينكر ذلك ابداً.

إذن ما سر الابداع في هذا الذي أسمعنا إياه شاعرنا الكبير؟

إنها دولة الشعر أو عبقرية الشعر تستطيع وحدها أن تحيل ما يسمُونه «الحقائق العادية» إلى حقائق غير عادية.. وهي حينئذ أحرى أن تبدو للسامعين أو القارئين أكثر وضوحاً واشراقاً، وأكثر روعة وقوةً ومن ثم أكثر تأثيراً في النفوس!

وهذا الذي يفصح عنه شاعر العرب ـ هو عينه ما طالما عبر عنه في مختلف المواقف، وهو نفسه ما لهج به في شعره طوال السنين، فالروح هي الروح علواً وسمواً، والنزعة هي النزعة، والهدف هو الهدف، من حيث اهتمام الشاعر بكل ما يمس حياة امته العربية، اسمعه في أول قصائده في الجزء الأول من ديوانه، وهي بعنوان «آمال وآلام» يقول:

رفعت صوتي فهل من يشرئبُ له — أم غفلة بعد هذا الصوت أم صممُ
لم أخش من جاهل يبدي نواجذه — غيظاً وإن كلمته تلكمُ الكلمُ!
لكن أرى أمة في اللهو سادرة — وخير ما يستفز اللاهي الألمُ!
وأقتل الداء ما نغضي مجاملةً — عليه، والضعف يخفيه فينكتمُ
غداً يقولون «رجعي» وكل فتى — في العُرب يرجو نهوضاً فهو مُتَّهمُ
ذرهم وإن جازفوا في الحكم وأفتأتوا — فلست إلا إلى شيئين أحتكم
إلى الضمير الذي لم يغشه دنسُ — إلى الفؤاد الذي لم يعره سقمُ

ففي هذه الأبيات الطليقة، والمتسمة بروح الحرية والصراحة والاخلاص المحض للأمة، وفي غيرها أيضا مما سيأتيك، لن نرى من شاعرنا سوى ذلك الشاعر الأبي الغيور، ذي النزعة المتحررة، والذي لايعنيه أن يحتكم لسوى ضميره النقي، وإلى فؤاده الصادق الحب لأمته العربية المسلمة، هذه هي روح الشاعر متجلية دائماً في كل ما أبدعه من شعره في الماضي والحاضر، وهذه هي نفس الروح المتوثبة في شعره الذي استمعنا إليه .

واستمع إليه في قصيدة أخرى من قصائد ديوانه الأول، يقول فيها مخاطباً قومه العرب:

فياقوم هل للعُرب في الشرق نهضة — فاني أخشى أن تجاوزنا غداً
وهل لعيوني قبل موتي أن ترى — فتى عربياً يأنف الذُّل مقعدا
يرد على أم اللغات جلالها — ويجعل للمجد الطريق معبَّدا

وكأنما كان ذلك الداء العضال، داء الحزبية البغيض.. العقبة الكادآء في طريق قومه العرب حتى في أول مراحل نضالهم.. ولعل هذا ما حدا بالشاعر أن يقول في نبرة واضحة من الألم والاشفاق:

ولي أمة حاولت ضم شتاتها — فلم ترد «الأحزاب» إلا تمردا
أهبت بهم أن يرفقوا فتفرقوا — وقد ضربوا لي ليلة الحشر موعدا

أرى العرب شعبا كلما غالب الكرى سقته دهاقين السياسة مرقدا

وفي قصيدته الثائرة بعنوان: أين الأسطول وأين الرجال، تراه يقول:

لم يُغن تحذيرٌ ولا اغراءُ فقد استوى الأموات والأحياء
إني صرخت فلم يكن إلا صدىً مرت به الأرواح والأنواءُ
ياقوم ما هذا الجمود فحسبكم ان الجمود إذا استطال «فناءُ»
الله أكبر هل جهلتم أنكم نهب القوي وانتمو ضعفاءُ
ساد التنازع في البقاء فلم يعد فيه لمن نبذ الجهاد بقاء

إلى أن يقول:

إن الرزيّة أن تكون بلادكم بيد الغريب وانتمو الغُرباءُ

وفي هذه القصيدة نفسها يشير إلى فكرة تعزيز السلام.. وأظنك ستقول بعد أن تتأمل الأبيات التالية أنه إنما قالها في هذه الأيام، أو هذه الأعوام، لأنها تصوير وأي تصوير للواقع الحاضر في عالم ما بعد الحرب.. ولأنها تدلنا على أن نغمة السلام، نغمة قديمة، ولأنها تزيدنا إيقاناً بالكلمة المأثورة: «التاريخ يعيد نفسه» وهذه هي الأبيات:

هتفوا بتعزيز السلام وإنما هي خدعة يرضى بها الجهلاءُ
أفلم تروا سُفناً تنوء بجهدهم ضاق الفضاء، وغصّ منها الماءُ
ركبوا البحار فأدركوا ما أمّلوا سيّان أرض عندهم وسماءُ

ثم في قصيدة الامتيازات، يقول مخاطبا الشرق:

أيها الشرق أنت في خدمة الغر ب كما يخدم اليتيمُ الوصيّا
فهو يمتص من دمائك ماشا ء وقد عز أن تراه رضيا
إيه ياشرق حان أن تتفانى في المعالي لا أن نكون دعيّا
أفنجني منك القتاد.. ولكن يجد الغرب فيك زهراً جنيّا

وبعد فهذه لمحة.. وليست دراسة، كما يجب أن تكون الدراسة، عن شاعر العرب الشيخ فؤاد الخطيب.

وقد لا تكون هذه النماذج أجود ما حواه الجزء الأ ول من « ديوان الخطيب » .

فهل آن الآوان لكي تحظى المكتبة العر بية بديوانه الكامل ؟ ذلك ما نرجوه و يرجوه القارئون جميعاً .(١)



(١) كتب هذا الفصل قبل ان تظهر طبعة الديوان بجزأيه الأ ول والثاني .

محمد رضا الشبيبي

من المعروف أن النصف الأول من هذا القرن العشرين يعتبر عصر الازدهار للشعر العربي الحديث!

وكانت اليقظة الفكرية في العالم العربي ـــ أو في بعض انحاء هذا العالم العربي على الأصح ـــ من أهم العوامل التي سبقت هذا الازدهار.

لقد كان بعثاً جديداً حقاً.. لاحت أضواؤه منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي وكان البارودي في مصر، ورواد آخرون قلائل في كلٍّ من الشام والعراق حاملي راية هذا البعث الجديد.

وليس من المغالاة أن نقول انها كانت أشبه بالطفرة وثبة أولئك الرواد الأولين بالشعر العربي.. فانه من الواضح أنه إلى ما قبل عهدهم مباشرة كان الشعر بل الأدب العربي عامة، بل الحياة العربية والاسلامية من جميع نواحيها قد وصلت إلى نهاية الحضيض.

لقد بدأ العرب منذ أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين يشعرون حقاً بأنهم قد اقبلوا على عهد ناهض جديد، ومن ناحية الأدب والشعر خاصة بدأوا لأول مرة يقرأون شعراً ناضجاً قوياً يتميز باشراق اسلوبه وجدّية معانيه!

ومنذ ذلك العهد عرفوا لأول مرة ابراهيم اليازجي ناظم أول قصيدة سياسية في الأدب العربي الحديث.. وما هو إلا أن ظهرت بعده في الميدان أسماء أعلام النهضة الشعرية الجديدة: شوقي وحافظ ابراهيم وخليل مطران ومعروف الرصافي ومحمد رضا الشبيبي وبشارة الخوري وفؤاد الخطيب وغير هؤلاء.

وفي الحجاز كان شاعر آخر يتابع هذه الحركة، و يساير هذا الوثوب ولعلك ستقول معي دون أي تردد انه شاعرنا: شاعر المدينة المنورة المعروف ابراهيم الأسكوبي.

لقد اثبت شاعرنا الاسكوبي أنه خلافا لمعاصريه من الشعراء الحجازيين شاعر متوثب، شاعر يعيش مع الأحداث، ولعل قصيدته السياسية وهي التي نظمها في أواخر عهد الدولة العثمانية، ناصحاً فيها تلك الدولة، والتي قام لها الحكام العثمانيون وقعدوا يوم أن نشرتها إحدى صحف مصر الكبرى وأظنها «المؤيد» لعل قصيدته هذه من اقرب الأدلة على هذا الذي نقول.

وفي الواقع كانت الأمور في اواخر العصر العثماني مجالاً خصباً لشعر الشعراء وكان الوعي القومي أو السياسي قد أخذ في الظهور شيئاً فشيئاً إلى ما قبيل الحرب العالمية الأولى.

ولعل الرصافي والشبيبي والشيخ فؤاد الخطيب كانوا في طليعة الشعراء العرب ممن تصدوا لمناوأة أوضاع ذلك العصر التركي ونادوا بالحرية والاستقلال!

وكان لشاعر العراق محمد رضا الشبيبي ــ وهو موضوع الحديث هنا ــ مواقف في هذا المجال تستحق الاشادة والتنويه.

وللشبيبي في شعره ميزة خاصة بين باقي شعراء العربية من انداده ومعاصريه تتركز في أسلوبه المشرق الرصين، اسلوبه الذي يذكر بشعر العصر العباسي الزاهر كما وصفه بذلك «انطون الجميّل» في مجلته الزهور يوم كانت تصدر في مصر في تلك الأيام وسنجد مصداق هذا الوصف في سائر شعر الشبيبي.

ولانذهب بعيداً فهذه إحدى قصائده بعنوان «في سبيل الشرق» وكانت نشرتها «الزهور» في عام ١٣٣١هـ ــ ١٩١٢م وكما تقول الكلمة المصدرة بها هذه القصيدة في ديوان الشبيبي: «لقد توقع الشاعر في هذه القصيدة تمزق شمل الدولة العثمانية وانسلاخ الأقطار العربية عنها وذلك قبل الحرب العامة بعدة سنوات».

يقول الشبيبي في هذه القصيدة:

لم يبق لي إلا الشباب وإنه ... ديباجة ضمن الأسى إخلاقها
نزلت بجيرتي الهموم فلم يطق ... حتى نزلن بكاهلي فاطاقها

وكرهتها.. ومن العجائب إنني ... لشديد ألفتها كرهت فراقها!
اشتاق اطّرح الهموم و يقتضي ... ظمأي إلى الآلام أن أشتاقها!

ولربما عرف المحبون التي ... تجني الشقاء فأصبحوا عشاقها!
شأن الفراشة واللهيب فانها ... تغشاه وهو مُسَبِّبٌ إحراقها!
يشكو الصبابة كل يوم مُدَّع ... وأحقنا دعوى بها من ذاقها!

مرت بنا الأمم الطليقة وانثنت ... أخرى تعالج اسرها ووثاقها!
هذي الجياد فمن تعاطي شأوها ... ياشرق فيك؟ ومن أراد سباقها؟
يامشرق الشمس المنيرة إنها ... ــ وأبيك ــ شمسك فارقت إشراقها!

إلى أن يقول وهو هنا يشير إلى هدفه في وضوح:

وإذا أراد الله رقـــدة أمـــةٍ ـــحتى تضيع ـــ أضاعها أخلاقها
مـلـك الـضـلال زمامها فاذا حبت أو امـسـكـت سـبـب المعالي عاقها
رأت الـعـدالـة لا تـروق لـعـيـنـهـا فـتـلـمسَّت في الليل «ظلماً» راقها
عـجلت على البلوى فساقت نفسها للـمـوت.. أو عجل البلاء فساقها
مـا عذر طائفة أضاعت «مصرها» أن لا تُـضـيـع «شآمها» و«عراقها»

الخ.. الخ..

ولعلك تلحظ في هذه القصيدة، وهي كما رأيت لم يرد الشاعر منها سوى أن ينقد تصرفات الأتراك.. لعلك تلحظ أن الشاعر يبدو في شعره متحفظاً حتى انه لم يذكر لفظة عرب أو لفظة ترك أو أي اسم من اسماء من يعنيهم، أو أية عبارة من العبارات المثيرة، وتلك احدى سمات الشبيبي في شعره السياسي والوطني و بالأخص ما كان نظمه في عهد العثمانيين.

وفي قصيدته «الحب الطاهر» ترى مثالاً آخر لهذا الذي نقوله عن شعر الشبيبي، وهذه القصيدة هي ـــ رغم عنوانها البعيد عن مادة ساس و يسوس ـــ وإنما يشير الشاعر فيها إلى ما وصلت إليه البلاد أواخر حكم الأتراك العثمانيين وذلك سنة ١٣٢٩ هـــ ١٩١١م من ناحيتي السياسة وتصريف الشؤون العامة كما هو نص الكلمة المصدرة بها هذه القصيدة في ديوانه أيضا.. استمع إليه يقول:

أمـــا لأسير في هـــواك جـــراحُ وهـــل لـتـبـاريح الـفـؤاد بـراحُ

ثم يستطرد إلى أن يقول:

خـلـيلي مـا أحلى الـغـرام سجية إذا كـــرمـــتـــه عـــفـــة وصـــلاحُ
ومـا أخطر العشق الذي ليس دونه على عـاشـق يـأتـي الهـنـات جناحُ

يـقـولـون: إتـيـان الـكـبـائـر جـائـزٌ وفـعـل الخـطـايا المـنكرات مباحُ
أفي هـذه الأخـلاق للجنس نهضةٌ وللـــبشر الآتين مـــنـــه فـــلاحُ

يـريـدون للـدنـيـا ضـمـاداً وإنـهـم بـجـثـمـان هـذا الاجـتماع جراح
و يـعـتـبـرون الناس مرضى كأنهم ـــوهم كيفوا داء ـــ النفوس صحاح

إنه نقد لاذع في الصميم لايمكن أن يأتي شاعر بأشد منه تعنيفاً. ولكنه بطريقة تشبه الايماء.

ثم تمر الأحداث سراعاً.

ويمضي العهد التركي بخيره وشره.. ولكن؟

ولكن سرعان ما رأي العرب أنفسهم، وقد تخلصوا من عهد الأتراك ليقعوا في شرك آخر جديد.. شرك آخر ما من شك في أنه أكثر سوءاً.. نستغفر الله فليس هنا للمقارنة مجال!

رأي العرب أنفسهم وجها لوجه في أعقاب الحرب العالمية الأولى أمام من كانوا لهم بالأمس أصدقاء. رأوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام هؤلاء الأصدقاء، وقد لبسوا لهم جلد النمر.. رأوا أنفسهم وقد كشَّر لهم عن نابه استعمار انجليزي، وآخر فرنسي.. يالها من خيبة أمل! و ياله من إخفاق أليم!

خيبة أمل ما كان أشدها وأقساها، عندما أعلن المنتصرون في الحرب لمن وقفوا إلى جانبهم في الحرب بأنه لا وعود ولا عهود ولا مواثيق.. وإنما هي المطامع.. وقد شاءت مطامع المستعمرين حينذاك غير ما شاءته أمة العرب عندما حالفت أولئك المنتصرين

لقد كان موقفاً مخزياً، وما أكثر ما سجله التاريخ، ولا يزال يسجله للآن لأولئك المنتصرين من أمثال ذلك الموقف المخزي!

بطبيعة الحال لم يكن في وسع الشعر إلا أن ينتفض، وإلا أن يثور!

وإذن فليعلنها شعراء ذلك الجيل حرباً ضروساً على الوضع الجديد. ليقاوموا الاستعمار فليس من ذلك بد. أو كما شاء المستعمرون أن يطلقوا عليه في ذلك الوقت «الوصاية» و«الانتداب».

وكالعهد بالسيد الشبيبي عندما كان يقارع الحكم التركي القديم.. هب من جديد يقارع عهد الوصاية والانتداب.

ولكنه في هذه المرة، يبدو شيئاً آخر.. شيئاً آخر غير ما عهدناه من قبل.

إنه يختلف في أسلوبه هنا عن أسلوبه هناك.

إنه هنا أكثر تحديا وعنفاً، فلا هوادة، ولا مداورة، ولا تلميح ولا إيماء!

وليت شعري ما الذي يدعو شاعراً عربياً إلى أن يداور ويجنح إلى ما كان يجنح إليه بالأمس القريب من حرص شديد على روابط وصلات مهما قيل عنها، فهي على كل حال روابط وصلات لها سند من عقيدة واحدة كانت تجمع بين الحاكم والمحكوم!

والشبيبي وكل شعراء العربية إذ ذاك إنما كانوا يؤمنون بأنهم بالنسبة لأصحاب الوصاية والانتداب إنما يقاومون شيئاً اسمه الاستعمار مهما حاول أصحابه أن يجعلوه مقنعاً أو من وراء حجاب!

من أشهر ما قيل من الشعر في تلك الفترة. قصيدة الشبيبي الثائرة «الشرق الناهض» التي يقول فيها:

نفد الصبر فهبت جزعا — وأبى السيف لها أن تضرعا
ودعا للذود عن أحسابها — شرفُ العرق فلّبت إذ دعا
أمة خرساء كم واشٍ وشى — بنواديها وكم ساعٍ سعى
أزمعت أن لايراها «حملا» — غاصب صال عليها «سَبُعَا»

ثم يقول:

جاهدي ياأمم الشرق الألى — قتلونا جاهديهم أجمعا!
واذكري ما فعل الغرب بمن — هذّبوه واصنعي ما صنعا

ثم يقول:

وثب «الريف» من الغرب بهم — فأثار الشرق والغرب معاً!
وتعالى في العراقين صدى — من بني الأطرش حتى اسمعا

وفي هذين البيتين الأخيرين يشير الشاعر الكبير إلى ثورة الريف التي قام بها الأمير عبدالكريم الخطابي في المغرب على الفرنسيين.. وإلى ثورة السوريين الكبرى على الفرنسيين أيضاً بزعامة سلطان باشا الأطرش في عام ١٩٢٦م

وللشاعر محمد رضا الشبيبي في أكثر الأغراض الشعرية جولات أخرى.. فلم يكن شعره الوطني أو القومي مجاله الوحيد!

وإنما في غيره من الأغراض أيضاً تراه صوالا جوالاً وشاعراً من الطراز الأول! فليكن مسك ختام هذا الحديث أبياته هذه الذائعة وهي من قصيدة نظمها في آواخر إقامته في دمشق سنة ١٣٣٩هـ — ١٩٢٠م وهي تعبر خير تعبير عن عاطفته العربية يقول:

ببغداد اشتاق الشآم وهانا — إلى مكرخ من بغداد جم التشوق
فما أنا في أرض الشآم بمشئم — وما أنا في أرض العراق بمعرق
هما وطن فرد وإن فرقوهما — رمى الله بالتشتيت شمل المفرق!

* * *

شعراء من الجنوب [1]

من دواعي الغبطة أن نرى حركة الفكر لها جذور في كل ناحية من نواحي المملكة العربية السعودية..

أقول هذا بعد أن وصلت إلى يدي نسخة من كتاب جديد يحوي باقة من الشعر المعاصر لأربعة من شعراء الجنوب: (جازان). وهؤلاء الشعراء هم السيد على بن محمد السنوسي، ومحمد ابن احمد عيسى، والسيد محمد بن على السنوسي، وهو نجل السيد على، ثم السيد احمد عبدالفتاح الحازمي.

الأول شاعر عالم ولد في مكة ـ كما جاء في ترجمة حياته المدونة في هذا الكتاب ـ ثم سافر إلى اليمن يطلب العلم، ثم جاء إلى جازان عام ١٣٣٤هـ ليتقلد مناصب القضاء فيها، وقد ظل قاضيا لجازان حتى عام ١٣٥٤هـ.

وشعر السيد علي جزل رقيق.. و يتسم بقوة العاطفة والحرارة وإن كان يجري على اسلوب القدماء في طريقته وأغراضه ومعانيه فله في ذلك العذر كل العذر، وحسبه أنه أول شاعر من الجنوب يقرأ الناس له مثل هذا الشعر الغزلي.. من قصيدة بعنوان (كيف السبيل؟):

كيف السبيل إلى العذيب ،فانني ... شاهدت فيه البرق تحت لثامكِ
ولقد أحاول لثم خدك مرة ... فيصدني خجل برؤية خالكِ
سقيا لليلات الوصال وأنسها ... لهوا على الكاسات فوق بساطكِ
طورا نمازجها، وطورا نحتسي ... صرفا على رشفات شهد رضابكِ

إلى أن يقول:

وأنا الهوى وخليله وزميله ... ودليله، والكل طوع بنانكِ
وأرى الهوان على هواك كرامة ... والذل اعزازا برغم عداتكِ

ثم انظر إلى لطافة هذا البيت على ما فيه من سذاجة وقد جاء مسك الختام لهذه المقطوعة:

قالت وقد ضحكت: سلمت من الردى ... فأجبتها: شكرا:، وانت كذلك!

إنه شعر رقيق يزخر بالعاطفة، و يتسم بالحيوية، وليس ينقص من قيمته الفنية أنه شعر كلاسيكي.. كما يحلو لبعضهم أن يقول:

---

(١) المنهل رجب ١٣٨٦هـ

أما الشاعر الثاني في هذه المجموعة: (محمد بن احمد عيسى) فقد نشأ وتلقى معلوماته في صبيا، ثم درس العلوم الدينية وعلوم النحو والصرف والبيان في جازان، وهو اليوم من كبار موظفي المالية هناك(١).

في شعر الشاعر نزعة تحررية، وشعور بالذات وجنوح إلى الموضوعات العامة، كما ترى في قصيدته المطولة وهي التي أنشدها في حفل عيد الأضحي لعام ١٣٦٣هـ وفيها يشدو الشاعر بالوحدة العربية.. ودعوة الأقطاب ــ أقطاب السياسة في الحرب العالمية الثانية ــ لجلالة الملك عبدالعزيز ــ رحمه الله ــ مشيرا إلى اجتماع جلالته بهؤلاء الأقطاب ثم دعوتهم للدول العربية في هيئة الأمم المتحدة، و يتغنى بالشعب العربي وما سجله التاريخ من المواقف قائلا:

له مواقف في التاريخ شاهدة — بأنه لصروح السلم قد رفعا

* * *

واصغى إلى همسات قلب طامح — متوثب الالهام والادراك

ثم ماذا؟

يتعشق الفجر الوضيء و يرتوي — اشعاع نور كواكب الأفلاك
نشوان من خمر القريض يعب من — نبع تدفق بالرحيق الزاكي
خضلت به دنيا الجمال فاخصبت — اسمى العواطف والشعور الذاكي
انا من علمت، ولا أقول مباهيا — قد صاغ من در البيان حلاك

إلى أن يقول:

قلم هززت به يميني، فانبرى — كالبرق في متلاطم الأحلاك
لمع يضيء على مشاعل نهضة — لطلائع الأجيال فوق ثراك
وترين لتسمع الدنيا له — نغم يردده الزمان وفاك
ولقد نظرت إليك نظرة شاعر — سامي الخيال.. مدله بهواك!
يرعى شواطئك الجميلة هاتفا — ومغردا.. بجمالها وصباك

ثم يختتم القصيدة بهذين البيتين قائلا:

إن لم أقدر فيك رغم تفوقي — و يكون حظ النابهين جفاك
فلقد مضى.. ان النباهة في الورى — حفت ــ كمثل الورد ــ بالأشواك

صدقت أيها الشاعر، وان هذا الذي تشير إليه، لسوء حظ الانسانية هو واقع الحال في كل مكان.

---

(١) (المنهل) كان كذلك يومئذ.. اما الآن فهومدير مكتب العمل والعمال التابع لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية في جازان.

وفي قصيدته «بيرس شيلي» وهو الشاعر الانكليزي المشهور ما ينبيء عن ثقافة شاعرنا.. وارتوائه من المناهل الغربية للأدب الحديث وهي سمة من سماته في نزعته التحررية التي أشرنا اليها.

يقول الشاعر في هذه القصيدة:

روح على الفن من اشعاعه الق   يلوح في ومضات الشعر يأتلق
وشعلة من ذكاء..ظل يلهبها   قلب غدا بأوار الحب يحترق
وجرس صوت من الالهام منبعث   يرن في مسمع الدنيا و يندفق
يضفي الرداء على الأفكار ينفحها   ريا الخلود،وفجر العمر مؤتنق

* * *

تحدرت من سماء الفن هابطة   للارض مجهشة الأنفاس ترتجف
تعب ضوء بيان ثم تنفثه   شعرا تلألأ من اشرافه الصحف

إلى آخر هذه القصيدة..و يلاحظ القارىء نزعة الشاعر التحررية واضحة في عدم تقيده بالقافيه الواحدة كما كان القدامى يتقيدون.

وقصيدة (قبس من أشعة الحق) هي الأخرى من روائع هذا الشاعر الموهوب، ولو أن الشاعر جعل عنوان قصيدته هذه:(من وحي عرفات) فأكبر الظن أنه عنوان أقرب إلى الروح الرفافة المتجلية في هذه القصيدة التي يقول فيها:

قبس من اشعة الحق قدسي   يتجلى على المشاعر، يمسى
تتبارى فيه الملائك أطيا   فا، من النور بالتسابيح همسِ
جانحات بين المقام وجمع   في رفيف نحو الحطيم ولمسِ
حين عج المكبرون وهلت   السن القوم من فصيح وخرسِ
اقبلوا مهطعين من كل فج   وعنوا خانعين من كل جنسِ
رددته الجبال..والقمم الشم   وفاض الخشوع في كل نفسِ

إلى أن يقول:

وفضاء مقدس الساح طهر   حرم لايحل يوما لرجس
لملمت ذيلها الرياح احتشاما   وسعى الدهر في ثراه بهمس
من ثنياته وشم روابيـ   ـه أضيء الوجود والليل يغسى
وتعالت مطالع النور في الكو   ن تنير الهدى لجن وانس

بسنا(احمد)وقد حل في الأفق | على عالم العقول بشمسِ
فاذا الوحي سائغ الورد عذبا | سلسلا كالزلال للمتحسى
واذا مشرع الشريعة قد فا | ض على قادة العلوم بدرس
شرعة حقة،ودين حنيف | دعم العدل والحقوق ببأس
ذاك بدر أنار والليل داج | وضياء جلى به كل لبس
نهض الشرق في سناه وقامت | دولة فوق قمة المجد ترسى
ملكت ساحل المحيطين..قسراً | واحتوت(قيصرا) وثنت بفرس

وأخيرا يتساءل الشاعر:

ليت شعري أينصف الدهر قوما | طالما سودوا على كل جنس
أسسوا في مشارق الارض عرشا | عربيا.. وفي المغارب كرسى
كلما جال ذكرهم في ضميري | كاد أن يغمر التخيل حسى

ثم يشير إلى الدولة التي أنشأها العرب والمسلمون في عصرهم الذهبي فيقول:

لم تشد مثلها على الدهر«روما» | في علاها..وما أتيحت لرمسى

وهو يعني هنا«رمسيس» أحد ملوك مصر القدماء، كما نظن، وكما هو ظاهر على أننا نلتمس أن يعذرنا الشاعر المفضال إذ أجزنا لنفسنا أن نتصرف تصرفا نحو يا بسيطا في بيته هذا فقلنا: (وما أتيحت لرمس).. وكانت في الأصل: «ولم تتاح لرمس» وهو خطأ نحوي لم يكن له مسوغ.

* * *

أما الشاعر (محمد بن على السنوسي) فقد ولد بجازان ودرس فيها العلوم الدينية، وهو ابن السيد على السنوسي الذي سبق أن أشرنا إليه. والابن هنا يجري على غرار أبيه.. مع ميل إلى التجدد، نتيجة لقراءته لشعر المعاصرين من أمثال (على محمود طه) الذي يحييه الشاعر بقصيدة جميلة من قصائد هذه المجموعة و يقدم لهذه القصيدة بقوله:

إلى تلك الروح المرفرفة في عالم الحقيقة، إلى ذلك «الملاح التائه» أقدم هذه الباقة الشعرية تحية اكبار واعجاب».

ثم يقول واصفا «الملاح التائه»:

عبق يفعم النفوس شذاه | ويثير الهوى عبير صباه
شاع فيه الجمال واتسق الفـ | ـن وفاحت بعطره دفتاه

ثم يقول:

لحظة! شاعر الجمال اناجيـ | ـيك بالحانك الرقاق العذاب
ورويدا اجلو عليك صبابا | ت غرامي.. وذكريات شبابي
قف أبث الهوى عواطفك الحرى | وأجلو عليك كأس شرابي
انت علمتني منادمة الرو | ض واغريت بي هزار الروابي

وهكذا يستمر شاعر الجنوب في مناجاة شاعر النيل أو شاعر الخيال وغريد المعاني وطيرها الصداح كما يقول:

ايه ياشاعر النجوم والليل والقمـ | ـر.. سلاما معطرا فواحا
لو ترى كيف اصبح الأفق السا | جي كئيبا وكان يندى سماحا
طويت بهجة السماء وغارت | انجم كنت بدرها اللماحا

ما من شك في أن الشاعر محمد بن على السنوسي متأثر إلى حد كبير بعلي محمود طه كما يبدو ذلك ــ وفي هذه القصيدة على وجه الخصوص ــ واضحا كل الوضوح.

وبعد.. فهذه المامة عن اخواننا في الفكر، وفي العروبة والموطن، شعراء الجنوب، لعلها تكون تمهيداً نقرأ بعده من الدراسات لآثار هؤلاء المواطنين الأعزاء ما نرجو أن يكون أوسع بحثا وأكثر تناولا لجوانب أخرى من شعرهم ونثرهم.



مع القلائد

ما أروع الشعر يجيئنا تعبيراً صادقاً عن الشاعر في بيان ناصع ، وفي اسلوب مشرق مبين !

أو بعبارة أخرى : «ما أروع الشعر ـ كما يقول صديقنا صاحب المنهل ـ ينبع من عاطفة شاعر متمكن في اللغة ، جامع لأعنة الأسلوب العربي الرائع مع سعة أفق وذهن ، وإخلاص مبدأ ، وصدق عاطفة ، وصحة بيان» .

نعم لأنه دون هذه الميزات كلها لايمكن لأي كلام يسميه صاحبه شعراً أن يهزنا عند سماعه ـ على رأي الزهاوي ـ أو يترك في نفوسنا أي أثر ، أو أي انفعال !

والشعر قبل كل شيء موهبة ، تولد مع الشاعر دون أن يكون له في وجودها أي فضل ، اللهم إلا فضل التفوق والامتياز فيما بعد عن طريق الدرس ، وعن طريق التأمل والمران !

الدرس والتأمل والمران ، ثم شيء آخر أيضا ما منه بد ، وأعني به حرص الشاعر دائماً أن يكون صادقاً فيما يقوله للناس .

فمتى توفرت كل هذه الصفات لشاعر فما من شك في أنها ستجعل منه شاعراً ملحوظاً بحق ، يحترمه القارىء و يستأهل التقدير !

ولئن كان الاستاذ الانصاري قد قالها في المنهل في صدق ودون محاباة ان ما عناه من هذه الصفات قد احتشد كله في ديوان «القلائد» فاني أقولها في غبطة لامزيد عليها ان شاعرنا السنوسي قد أبدع في الكثير من هذه القلائد ابداعاً يستحق عليه التهنئة والاعجاب !

ولست اريد في هذه الكلمة أن اكرر ما سبق أن كتبه الكاتبون عن قلائد السنوسي ، غير أنه لابد من أن أشير هنا إلى أن ما ظفر به ديوان القلائد من إجماع الناقدين على التنو يه بشأنه تنو يهاً لم يحظ به غيره ـ فيما يبدو ـ هذا الاجماع اعتقد أنه وحده الدليل على أن شاعرنا محمد بن على السنوسي قد اجتاز تجر بة اخراج باكورة دواو ينه للناس في نجاح بارع موفق مرموق !

وربما يسأل سائل : ما سر هذه الحظوة ، وهذا الاقبال ؟ وأنا لا أتردد في الاجابة هنا : انه الصدق : صدق الشاعر في شعوره أولاً ، ثم صدقه في تعبيره عن هذا الشعور !

ولعل أول سمة من سمات هذا الديوان أنك لا ترى في أية قصيدة من قصائده تكلفاً ، أو تبذلاً ، بل انك لتجد نفسك بازاء شاعر متمكن جامع لأعنة البيان ، متحرر ومحافظ في آن .. متحرر في افكاره ، محافظ في اسلو به العربي الأصيل !

ولقد ضم ديوان «القلائد» قصائد في المديح، إلى قصائد في الرثاء، ولكنك تقرأ هذه القصائد كلها فلا ترى في واحدة منها ما نعهده من مبالغات الشعراء في معظم ما ينظمونه في المديح والرثاء!

بل إنك على العكس تشعر بأن السنوسي سواء في مديحه أو رثائه إنما يعبر عن شعوره في صدق وإخلاص!

ومن أروع ما تقرأه في ديوان القلائد قصائد الشاعر حول القضايا العربية وما تعانيه هذه القضايا من تحكم الاستعمار، وارهاب الاستعمار!

فقصائده «أم القرى» و«حطم المارد القيود» و«العالم العربي» و«لمحات من التاريخ» و«تأميم وتصميم» و«بطولة الجزائر» و«اليقظة العربية» و«جنكيزخان» كلها تفيض حماسة ووعياً.. وإخلاصاً في متابعة قضايا العروبة، وقضايا الحرية في نضالها المستميت مع اعدائها المستعمرين!

وهو في قصيدته «لمحات من التاريخ» يعود بنا إلى الماضي البعيد، للأمة العربية، مشيداً بما تميزت به بين الأمم من أخلاق الوفاء والبر بالعهد ولا ينسى أن ينوه ببعض المواقف المشهورة في التاريخ العربي القديم مما يثبت بعض ما اتسمت به سجايا العرب من حب للخير، وميل إلى نصرة الحق اينما كان كحلف الفضول مثلاً.. ثم يهيب بابناء قومه قائلاً:

بني العروبة إن الحادثات وإن ... جلّت هي الريح نستشري بها لهبا
و«القوة» اللغة الفصحى، وعصركمو ... أصم لا يسمع الأشعار والخطبا
هزوا الجزيرة من اركانها حرداً ... واشعلوا الشرق من اقطاره غضبا
ذودوا عن الحق، إيمانا بقوته ... من غالب الحق عدواناً به غلبا

إلى أن يقول:

إن الحياة جهاد والجدير بها ... من غالب العاصفات الهوج والنوبا
وفي الخضم لمن شدت سواعده ... سبح يهون به التيار مصطخبا
واليأس أقتل داء دب في أمم ... تعاورتها الليالي فانثنت نصبا

وفي قصيدة «تأميم وتصميم» وكان قد نظمها أثناء العدوان الثلاثي على مصر في سنة ١٩٥٦م يندد الشاعر بالاستعمار والمستعمرين تنديد رجل يؤمن بعروبته وإسلامه إيمانا واعياً وعميقاً، و يرى في هذا العدوان الغاشم حرباً صليبيةً أخرى أما عن اسرائيل فلم تكن سوى

ذريعة لمن شنوا تلك الحرب الصليبية الأخرى!

ولـم تـك اسـرائيـل إلا ذريـعـةً قـد اتخذوا منها لاهدافهم جسرا!

أما قصيدته «بطولة الجزائر» فالحق أنها من أقوى ما نظمه شاعر عربي في هذا المجال.

فلنستمع إليه يقول فيها:

أهـابـت فـغـدا هـادم واهـاب ونـادت قـلبـاهـا شـبـا وشـبـاب
تـفجـر واديـهـا وفـاضـت جبـالها ودمـدم بـالموت الـزؤام سـحـاب
وصـاغـت من النير الفرنسي صارماً عـنـت مـنـه لـلمـسـتـعمرين رقاب
ودارت على أرض الجـزائـر ثـورة يـشيـب عليها الدهر وهي كعاب
كـتـائـب فـيـهـا «خالد» وأسامة و«سـعد» وفيها «خولة» و«رباب»
ارادة شـعـب كـبـل الـقـيـد ساقه فـصـمـم لايـثـنـي قـواه عـقـاب
وكـانت ارادات الشعوب ولم تزل أحـد وأمضى والحـيـاة غـلاب
أيـسـتـعـمـر الـشـرقي والشرق كله عـريـن يـدوِّي بـالأسـود وغاب
لقدمات عصر الذل والخوف وانقضى وهـيـل على ذاك الـزمـان تـراب
هـنـا جبهة التحرير والحق والهدى تخـر الـنـواصي عـنـدهـا وتـصـاب
هـنـا الـعصبة الأحرار أما سماؤهم فـرعـد وأمـا بـحـرهـم فـعـبـاب

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة. وقد بلغت أبياتها سبعة وخمسين.

ولنستمع إليه مرة أخرى في قصيدته «اليقظة العربية» صارخاً في وجه دعاة السلام أو من يطلقون على أنفسهم وصف «دعاة السلام» يقول السنوسي:

يـادعـاة الـسـلام تـلـك فـرنـسـا تـتـحـدى مـشـاعـر الـبـشـريـه!

وأي تحد أشد من تحدي هذه الدولة في حربها الظالمة ضد الجزائريين الأحرار، فيما يزيد عن ست سنوات إلى جانب دعواها المزعومة الباطلة: «الجزائر قطعة من فرنسا».

تحـرق الأرض بـاللـهيب وتـشـو يـهـا جـهـاراً، وتـصـلـب الحـريه!
وهـي في ظـلـكـم تـروح وتـغـدو أفـلا تـزجـرون تـلـك الـشـقـيـة!
أتـقـيـمـون مـأتمـا يمـلأ الـكـو ن ضـجـيـجـاً لـكـلـبـة روسيه!
يـالهـا دعـوة يـصـلي لهـا الـذئــ ب إماماً بين الـصـفـوف الـتـقيه!

أيـن نـزع الـسلاح يـاأيـهـا الـقـو م؟ وأيـن المبـادىء الـعـالميـه؟
أيـن حـريـة المـصير وإقـرا ر المـواثـيق والعـهود الجلـيه؟
افـمـا آن للـحـقـيقـة أن تحـيـا حـيـاة لا تـعـرف «الـبـنـدقيه»؟
افـمـا آن للـسـلام المـفـدى أن يـسـود الـورى و يـلقي عصيه؟
يـاإلهـي مـاذا؟أيـنـتـحـر الـسلـ م على مـذبـح مـن المـدنـيـه
الأسـاطـيـل والـقـنـابـل والألـ ـغـام والـطـائـرات والمدفـعيه!
كـل هـذا على الجـزائـر يـنـصـب و يـنـقـض بـكـرة وعـشـيـه!
ودعـاة الـسـلام يـلـهـون بـالأ و راق فـوق المـوائـد الـدائـريـه!

و بعد فلأكتف بهذا الذي أوردته من شعر «القلائد» كانموذج يدل على قيمته ونفاسته لا من ناحيته الفنية فحسب.. وإنما من ناحية محتواه الملتزم أيضاً.



تقديم الأغاريد

صبيحات من هنا وهناك، تتنادى بين حين وآخر بأن دولة الشعر. لم يعد لها في عصرنا هذا مكان..

صيحات.. تردد لفظة «العلم» وفي وهمها وخيالها ان العلم وهو ثمرة من ثمار العقل، ومن ثمار التجريب يرفض كل ما عداهما من ثمار الآداب والفنون

و يبدو أن هؤلاء العلميين، أو التجريبيين، يتصورون أنه ليس في الامكان أن يتلاقى الفن والعلم في صعيد واحد.

وفي رأينا انهم مخطئون بلا شك..

مخطئون.. لان الواقع العلمي في الحضارة الغربية الحاضرة.. يشجب — في إصرار — كل ما يقولون.

ان الحضارة الغربية، حضارة العلم، لم تتنكر للفنون!

بل لعل الحضارة الغربية — كما نشهد — تفوق كل ما سبقها من حضارات، في إعطائها المزيد من عنايتها بالأدب، وعنايتها بالشعر، و بسائر الفنون!

والواقع أن هذه الحضارة قد أظهرت من حفاوتها بالفنون عامة، والأدب منها بصورة خاصة، والشعر بصورة أخص.. ما لم يتوفر نظيره في أي عصر من العصور.

و بحسبنا في هذا المقام أن نذكر «جائزة نوبل للأدب» إلى جانب غيرها من عشرات الجوائز التقديرية أو التشجيعية للأدب والشعر في العالم الحديث.

إن الشعر — وهو في مكان الطليعة بين فنون الأدب — لايمكن أن يخلو منه عصر.. مهما أوغلت فيه المادة.. أو طغى فيه التقدم العلمي.

ذلك لأن الشعر تعبير — بل هو أصدق تعبير — عن خوالج النفس البشرية.

الشعر هو أصدق تعبير عن المشاعر والأحاسيس.

انه لغة العاطفة. يخاطب بها الشاعر عواطف الناس قبل أن يخاطب عقولهم.

انه لغة القلب.. يترنم بها الشاعر في اعذب لحن وأشجي نغم، وفي اسلوب يهز النفس،

و يؤثر في الوجدان.

اسلوب يتميز بذاتية الشاعر، وصدقه في الشعور والتعبير!

والصدق في الشعور، والصدق في التعبير هما أول سمات الشاعر الموهوب!

كذلك فان الشعر فن، ورسالة معا فليس شعرا، ولا يمكن أن يسمى شعرا، أي كلام مهما ابدع فيه القائل، اذا خلا من رسالة، أو تجرد من هدف أو مضمون.

ولقد مرت بشعرنا العربي ــ بعد عصوره الذهبية المجيدة ــ عصور من التخلف، كانوا يسمونها ــ بحق ــ عصور الظلام.

كانت عصور ظلام بصدق.. في العالم العربي كله، لا بالنسبة لمجال الشعر والأدب فحسب، وانما بالنسبة لكل مجال من مجالاته الفكرية.

كانت عصورا عاش فيها العالم العربي، أسوأ حالات التخلف الفكري.

بل في كل ناحية من نواحي الحياة، وفي كل جانب من جوانب النشاط سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، كانت الشعوب الناطقة بالعربية خلال تلك الفترة الطويلة تغط في نوم عميق!

بينما كانت شعوب الغرب تمعن في نشاطها، وتواصل تقدمها!

ولقد كان من الطبيعي جدا أن يشمل هذا الركود الحياة الأدبية.

كان من الطبيعي الآ ينبغ طوال تلك الفترة المظلمة شعراء مبدعون من طراز أبي تمام ــ مثلا ــ أو المتنبي أو البحتري.

وجاء العصر الحديث، في اعقاب غزوة نابليون للشرق العربي.

وابتدأ اللقاء بين أوربا والشرق على أصوات المدافع منذ أن فكرت أوربا في غزوها الاستعماري.

في غمرة هذا اللقاء المرير بين الغرب والشرق لم يكن بد من أن يتبدل كل شيء. وأن يصحو النائمون!

لقد بدأ اللقاء ــ اذن ــ و بدأت معه نقطة التحول في حياة الشعوب العربية.

بدأ هذا اللقاء، و باسبابه كانت اليقظة، و باسبابه أخذ ما نسميه اليوم «الوعي» ينمو بالتدريج.

وقد كان أول ما تجلى هذا الوعي ــ بما يشبه الطفرة تقريبا ــ في الحياة الأدبية والشعرية.

كانت كل العوامل، بما فيها حركة احياء التراث القديم ــ تدعو إلى أن يكون الشعر هو السابق في ميدان النهوض.

واستمع الناس أول ما استمعوا إلى نغم جديد لم يألفوه في الشعر العربي.

استمعوا إلى البارودي رائد شعراء العصر الحديث! استمعوا إليه شاعرا من نمط جديد!

شاعرا عملاقا. عملاقا في اسلوبه. واغراضه ومعانيه!

وتوالت الأنغام، وأخذ يظهر على التتابع شعراء البعث الجديد!

ظهر في مصر «شوقي» و«حافظ» و«مطران» وظهر «الرصافي» وزملاؤه في العراق.

وفي لبنان وسورية استمعنا إلى «ابراهيم اليازجي» و«الأخطل الصغير» و«بدوي الجبل» و«فؤاد الخطيب» وغيرهم.

ولست أنسى المهجر في اشارتي هذه إلى الشعراء الرواد في العالم العربي.

وهل يمكن أن ننسى «فوزي المعلوف» و«ايليا ابا ماضي» و«الياس فرحات» و«ميخائيل نعيمة» و«نسيب عريضة» وعميدهم «جبران».

هؤلاء ــ إلى نوابغ من الشعراء عديدين ــ كانوا ــ في الحق ــ طليعة البعث الشعري في العصر الحديث.

هؤلاء هم رواد النهضة الأوائل إلى جانب روادها الآخرين في الميادين الأخرى.

هؤلاء هم الذين هزوا النفوس، وغنوا على أوتار القلوب!

هؤلاء هم الذين كانوا في طليعة نضال شعوبهم، ضد كل رواسب التخلف، وضد كل رواسب الجهل وضد الاستعمار!.

ونسأل ــ ولابد من أن نسأل هنا: ــ ما هو نصيب بلادنا في هذا المجال؟

ما هو نصيبها في ميادين الانتاج والابداع، منذ أن شرعت بدورها تحاول اللحاق بالركب الحضاري؟

انه من الحق أن نقول ــ تسجيلا للواقع ــ ان الحركة الأدبية الجادة في بلادنا ــ لاكثر من سبب ــ بدأت متأخرة عن سواها.

ومن الحق ثانيا أن نقول دون أن نغالي أو نبالغ ان المحاولات الأدبية الأولى ثم ما تلاها من محاولات ــ وخاصة في الشعر ــ لم يكن ينقصها النضج سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون.

وليس من الادعاء أن نقول انه في كل موضوع من موضوعات الشعر الجديدة قد شارك شعراؤنا شيوخا وشبابا بأوفى نصيب!

لقد شارك شعراؤنا سواء في الحجاز أو نجد أو الخليج أو الجنوب في كل موضوعات الشعر بما فيها الشعر السياسي والاجتماعي والتأملي والعاطفي، ولم يكن النضج ينقص هذا الشعر ــ كما قلت ــ شكلا أو مضمونا.

وما أظننا ننسى أنه في شتى المواقف النضالية.. سواء ما كان منها بالنسبة للاستعمار وتحدياته للحركات الوطنية في الشرق عامة.. أو ما كان منها في مجالات النقد الذاتي، وغيره من المجالات. ما أظننا ننسى أن الكثيرين من شعرائنا قد اسهموا اسهاما متميزا في هذا المضمار، منذ أتيح لهم، أو اتيح لبلادهم أن تظفر باستقلالها السياسي في اطاره الكامل، وبالتالي منذ اتيح لبلادهم أن تنهض لتعود تمارس لغتها الفصحى من جديد ــ بعد فترة من الزمن طويلة ــ لتصبح هذه اللغة مرة أخرى: لغة «الدولة» أي «الادارة» و«السياسة» و«التعليم»!

وحسبي أن أنوه هنا بشهادات قيمة للشعر المعاصر في هذه البلاد اعلنها صراحة كثيرون من شيوخ الأدب في العالم العربي.

حسبي أن أنوه هنا بما كتبه مثلا كل من مارون عبود وطه حسين ومحمد مندور وزكي أبو شادي والخفاجي ومحمود تيمور وزكي المحاسني وغيرهم من أفاضل الكاتبين.

وإن كنت أرى أنه لاينبغي أن ينسينا ذلك أن بلادنا ما زالت في المراحل الأولى من حياتها الأدبية.

* * *

ولا أحب أن اطيل فحسبي هذه الاشارة لانتقل إلى الحديث ــ في كلمة مجملة ــ عن شاعر من شعرائنا النابهين، شاعر طليعي بحق ــ اعني به ــ الاستاذ السنوسي صاحب هذا الديوان.

ولست أحاول في هذه الكلمة أن اعرف بالسنوسي شاعرا. فالسنوسي بشهرته غني عن أي تعريف!

ان للسنوسي مكانته بين شعرائنا البارزين.

فهو صاحب «القلائد» وقد كان لديوانه «القلائد» وما يزال صداه الطيب الجميل في أوساطنا الأدبية.

وأحسب أني لا آتي بجديد عندما أقول عن صديقي محمد السنوسي انه أول شاعر من شعرائنا يترجم بعض من شعره إلى لغة اوربية!

وتلك شهادة لا اظن السنوسي وحده يختص بها بل هي أحرى أن تكون شهادة لها مغزاها ولها مدلولها بالنسبة للشعر السعودي عامة.

والحق أن في شعر شاعرنا من سمات الشاعر الأصيلة ما هو خليق بأن يجعل من هذا الشعر. شعرا يستأهل الاعجاب.

ان من أهم سمات شاعرنا السنوسي –في اعتقادي– انه لايحاول أن يتكلف، أو يظهر بغير حقيقته. أو يقول مالا يعتقد، أو يمدح –مثلا– من لايرى انه أهل لثناء ومدح.. وانما هو في كل ما طالعته من شعره، لا اراه إلا حريصا كل الحرص على التزامه لهذه السمة، سمة الصدق في التعبير!

ولعل من ميزات السنوسي، وهي ميزة اعتقد أن القليلين من شعرائنا يشاركونه فيها. لعل من ميزات السنوسي اكثاره من القراءة والاطلاع.

فالسنوسي مولع بأن يقرأ.. وأن يقرأ، وأن يشارك في العديد من الفنون، والعديد من الوان المعرفة.. واني لاغبط السنوسي حقا أن اراه مولعا – إلى حد النهم– بالقراءة والاطلاع.

وللقراءة وللاطلاع أثرهما في شعر الشاعر، وأدب الأديب.

وليس من شاعر مشهور سواء في أدبنا العربي قديمه وحديثه أو في سائر الآداب العالمية في الشرق والغرب إلا وعرف عنه ادمانه على القراءة واكثاره من الاطلاع.

و يكفي أن اذكر هنا أبا الطيب المتنبي وابا تمام وابا العلاء المعري وامثال هذه الطبقة من شعرائنا القدامى

ومن شعراء العصر الحاضر: عباس العقاد وزميلاه شكري والمازني وغيرهم من اقطاب الشعر الحديث!

وأذكر أن الشاعر الكبير «الشيخ فؤاد الخطيب» كثيرا ما كان يتحدث في هذا المجال. منوها بوجوب أن يكون الأديب أو الشاعر مثقفا واسع الثقافة ومشاركا في كل الفنون.

واعتقد أن لثقافة السنوسي المتعددة الجوانب اثرها في شعره بصورة عامة إلى جانب موهبته الفنية المعطاء.. ولعله من هنا يبدو لنا ما نلمسه في شعره غالبا من نبض في الأسلوب، وحيوية في الألفاظ، وعمق في المعاني، وسمو في الاغراض.

* * *

وبعد فما اظن قارىء شعر السنوسي في ديوانه هذا الماتع الجديد في حاجة إلى مزيد من حديث عن الشاعر السنوسي وعن شعر السنوسي.. فحسب الشاعر أن شعره قد ظفر باعجاب قارئيه جميعا منذ صدر له أول ديوان. بل حسبه أن شعره قد ترجم إلى لغة اوربية كما سبق أن اشرت وفي كل ذلك ما يغنيه و يغني شعره عن أي مزيد في الاشادة والتنويه.



تقديم وحي الفؤاد

الأخ الصديق الأديب الاستاذ فؤاد شاكر، أراد مني أن ادون هذه الخواطر اقدم بها لديوانه هذا الحديث.

ولم يسعني، تقديراً مني لشعوره الطيب، وحسن ظنه بي. سوى أن أمتثل لرغبته واستجيب.

وسألت نفسي ــأولاًــ: من أين أبدأ؟

أأبدأ بالحديث عن شعر الشاعر، وهوــ كما نعلمــ شاعر نابه معروف له من شهرته ما يغنيه عن أي كلام يقال عن شعره المقروء؟

أم أنه لابد قبل أي حديث من تمهيد.. ــولو سريعــ عن مرحلة من المراحل، يجتازها الشعر العربي في هذه الأ يام؟

وكان جوابي: لابد من مثل هذا التمهيد. على الأقل عن «ظاهرة» تبدو أكثر ضجيجاً وصخباً ودعاية منذ أواخر الحرب الأخيرة.

وما أظن قارئاً أديبا. إلا وقد عرف ما هي هذه الظاهرة؟ أو على الأصح ما هي هذه القضية ذات الأهمية، التي تواجه الشعر المعاصر؟

ما أظنه إلا قد عرف انها قضية النزاع القائم بين مدرسة في الشعر ترى في منتهى الاخلاص ان الشعر العربي هو الشعر العربي.. فلا بد ــإذنــ أن يظل مع ابتعاده عن أي جمود ــعربيا في روحه، عربيا في مبناه.

ومدرسة أخرى جديدة. خرجت تدعو إلى التطور، وليس التطور مذموماً لذاته. إلا أنها أوغلت في دعوتها و بالغت.. إلى أقصى الحدود.

هذا هو النزاع القائم في دنيا الشعر اليوم.

نزاع بين مدرستين من مدارس الأدب إحداهما ــكما لا ينكر أحدــ كانت رائدة التجديد في الشعر العربي منذ أوائل القرن العشرين. والأخرى على النقيض تنكر أي تجديد احدثته تلك المدرسة.. بل أكثر من ذلك تراه تقليداً..رجوعاً إلى الوراء..خضوعا للقديم..

مدرسة الشعر الحر، أو الحديث..كما يسميها أصحابها لا ترى في تجديد خليل مطران أو تجديد شعراء الديوان.. أو شعراء المهجر سوى أنه تقليد ربما لسبب واحد فقط: هو أن كلا من خليل مطران والعقاد والمازني وشكري وإيليا أبي ماضي وغيرهم ممن ساروا على طريقتهم.. لم يحاولوا أن يثوروا على القديم.

لم يحاولوا أن يلغوا الطابع العربي الأصيل للقصيدة العربية.

لم يحاولوا أن يتحرروا من وحدة القافية في الشعر.. وبالتالي لم يحاولوا أن يتحرروا من أوزان الشعر في نمطها التقليدي المعروف.

وليس من شك في أنه سيستمر هذا النزاع و يستمر، شأنه شأن أي نزاع يحدث عادة بين أي اتجاه واتجاه..

والحكم —في رأيي— يجب أن نتركه للزمن. فالزمن وحده كفيل بأن يقوم بمهمة الغربلة والتمحيص.

الزمن وحده كفيل بأن يثبت لأي من هاتين المدرستين المتنازعتين على دولة الشعر صلاحها للبقاء أم عدم صلاحها.

* * *

ومهما يكن من أمر.. أو مهما يكن من خلاف في الرأي في هذا المجال أحب الاّ يفوتني أن أشير هنا إلى حقيقة بارزة ليست بخافية. وهي أن الشعر العربي الأصيل أو المحافظ أو التقليدي كما يصفونه يعود إليه وحده الفضل في الوعي الفكري الحديث.

وقد كان اعلام هذا الشعر ابتداء من البارودي واليازجي وغيرهما من شعراء القرن التاسع عشر ثم شوقي وحافظ ومحرم والرصافي والشبيبي والخطيب والأخطل الصغير وغيرهم من شعراء القرن العشرين هم الذين هيأوا لهذا الوعي وما يزال شعرهم هو الأكثر سيرورة ورواجا إلى يومنا هذا.

نعم ما يزال شعر هذه النخبة من شعرائنا العرب في هذا العصر هو الشعر الأكثر سيرورة ورواجا في كل مكان.

لا لشيء إلا لأنه أصيل.

ليس فيه زيف. وليس فيه هزال.

أبرز شيء فيه انه شعر عربي، يتسم بالطابع العربي، دون أي تزمت، ودون أي جمود، فهو من ناحية اغراضه ومعانيه متحرر كل التحرر، ومساير للتطور.. لكن دون أن يمس هذا التطور — من ناحية الشكل — القواعد الفنية للشعر العربي.

ان ميزته التي من اجلها سمي «تقليديا» أن اصحابه أبوا أن يمحوا الطابع العربي للشعر. لكنه فيما عدا محافظته على عمود الشعر.. وفيما عدا احتفاظه بالصياغة العربية ومنها وحدة القافية في القصيدة.. فيما عدا كل ذلك. فان هذا الشعر لم يتخل عن رسالة التجديد بل لقد كان هذا الشعر في الواقع هو الذي أخذ ينشر الوعي و يوقظ الأفكار بل حسب هذا الشعر طيلة هذه الفترة انه هو الذي أوجد فكرة الكفاح ضد الاستعمار لدى الشعوب العربية.

لقد كان ملتزما حقا.. ولو أن كلمة التزام لم تدخل القاموس العربي في سوى الزمن الأخير.

فكما كان من ناحية الصياغة والشكل ملتزما. كان ملتزما أيضا من ناحية المضمون. كان هو الموحي والموجه. والمعبر في كل المواقف، وتجاه كل الأحداث عن آمال العرب وآلامهم. لم يكن شعرا من أجل الفن — ومن أجل الفن فحسب — وإن كان هو في مجموعه الضخم في الذروة من الفن.

لم يكن ترفا.. ولا ميوعة أو تصويرا لمشاعر جامحة، أو هوى مكبوت.

باختصار: لم يكن اعلام الشعر العربي المعاصر منذ اوائل القرن العشرين: شعراء انانيين يعيشون في أبراج من العاج.

و بالطبع هذا لايمنع الاستثناء.

* * *

نعم.. لم يكونوا شعراء انانيين.

فهذا احمد شوقي — على سبيل المثال — واحرى به أن يكون هو وحده المثال.. نقرأ شوقياته في اجزائها الأربعة مع ما ظهر من شوقياته المجهولة.. فلا نجد في الشوقيات سوى الأثر الحي للعبقرية.. دون مراء.

في الشوقيات: نبضات شاعر عظيم، شاعر استطاع أن يرتفع بجناحي نسر.. شاعر كان يحس من أعماق وجدانه أنه ابن الأمة التي يحيا فيها، والزمن الذي يعيش فيه.

لقد كان شوقي بحق — شاعر العصر الحديث.

كل قطر من اقطار العروبة كان ينظر إلى شوقي على اعتبار أنه شاعر العربية الأول.

ولم يكن ذلك اكبارا لشاعرية شوقي وحدها.. وانما كان ذلك لأن شوقي نفسه انما كان يعبر في شعر رائع مؤثر، عن مشاعر العرب اجمعين.

* * *

في حفلة تكريمه في عام ١٩٢٦م وقف شوقي يحيي المحتفلين و يشكرهم، وقف يحييهم و يشكرهم بأروع شعر يصدر عن شاعر.. ولم ينس شوقي وهو في موضع الحفاوة، وفي مقام التكريم.. لم ينس شوقي أن يترنم بالشرق.. وان يشيد بالعرب وان يتحدث في ألم وفي أمل عن اسمى مشاعره وأمانيه. في حفلة تكريمه.. وفي أجمل قصيدة القيت في الحفل استمع الناس إلى شوقي يقول:

كان شعري الغناء في فرح الشرق، ... وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر ... ح، وان نلتقي على اشجانه
كلما أن بالعراق جريح ... لمس الشرق جنبه في عمانه
وعلينا كما عليكم حديد ... تتنزى الليوث في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواء ... كلنا مشفق على اوطانه

* * *

وفي نفس العام وقعت نكبة دمشق على ايدي الفرنسيين أثناء الثورة الكبرى التي قامت بها سورية اذ ذاك.. فكانت أروع قصيدة قالها شاعر عربي حول هذه النكبة ــ على كثرة ما نظم الشعراء من شعرهم يومذاك ــ هي قصيدة شوقي.

وفي هذه القصيدة يقول:

سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لايكفكف يادمشق!
ومعذرة اليراعة والقوافي ... جلال الرزء، عن وصف يدق

ثم يقول:

لحاها الله انباء توالت ... على سمع الولي بما يشق
تكاد لروعة الأحداث فيها ... تخال من الخرافة وهي صدق

وقيل: معالم التاريخ دكت | وقيل: اصابها تلف وحرق

إلى أن يقول:

رباع الخلد ويحك. ما دهاها | أحق انها درست؟ أحق؟

ثم يقول ــ وكأنما هو يخاطبنا الآن ــ

وللمستعمرين، وان ألانوا | قلوب كالحجارة، لا ترق

ثم يقول:

وحررت الشعوب على قناها | فكيف على قناها تسترق؟
«نصحت.. ونحن مختلفون دارا | ولكن كلنا في الهم شرق»
«ويجمعنا اذا اختلفت بلاد | بيان غير مختلف، ونطق»

إلى أن يقول:

وللأوطان في دم كل حر | يد سلفت.. ودين مستحق
«ولا يبني الممالك كالضحايا | ولا يدني الحقوق، ولا يحق»
«ففي القتلى لأجيال حياة | وفي الأسرى فدى لهمو وعتق»
«وللحرية الحمراء باب | بكل يد مضرجة يدق»

إلى آخر هذه القصيدة المدوية.. الطائرة الصيت.

* * *

من شعر شوقي أيضا هذه الأبيات يخاطب فيها المستعمر:

ان ملكت النفوس فابغ رضاها | فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسر | فكيف الخلائق العقلاء؟
يحسب الظالمون أن سيسودو | ن وان لن يؤيد الضعفاء
والليالي جوائر مثلما جا | روا وللدهر مثلهم اهواء

ولنلاحظ ان شوقي قال هذه الأبيات في عام ١٨٩٤م والاحتلال الانكليزي جاثم فوق ارض الكنانة والسلطان عبدالحميد كان ما يزال سلطانا، وأميرا للمؤمنين.

* * *

شاعر آخر من رصفاء احمد شوقي.. انه «معروف الرصافي» الذي يقول في احدى قصائده الساخرة «القوة تصف الحرية» باسلوب كله تهكم:

يـاقـوم لاتـتـكـلـمـوا　　ان الـكـلام محـرم
نـامـوا ولا تـسـتـيـقـظـوا　　مـا فـاز إلا الـنـوم
وتـأخـروا عـن كـلـمـا　　يـقضي بـأن تـتـقـدمـوا
ودعـوا الـتـفـهـم جـانـبـا　　فـالخير أن لاتـفـهـمـوا
وتـشـبـتـوا في جـهـلـكـم　　فـالشر أن تـتـعـلـمـوا
مـن شـاء مـنـكـم أن يعيـ　　ـش الـيـوم وهـو مـكـرم
فـلـيـمـس لا سـمـع ولا　　بصر لـديـه ولا فـم
لايـسـتـحـق كـرامـة　　الا الأصـم الأبـكـم

وما أكثر هذه «الرصافيات» التي لم تكن إلا تنديداً بالمستعمر.. رصافيات لو قالها غير الرصافي آنذاك، لما كان يحظى إلا بالسجن أو ما هو أشد من السجن أو النفي والتشريد.

ولنستمع إلى شاعر آخر أيضا.. شاعر من لبنان.. إلى الأخطل الصغير.. في قصيدة من قصائده يحيي فيها جهاد فلسطين ــ والتاريخ اليوم يعيد نفسه ــ يقول فيها:

يـافـلـسـطين الـتـي كـدنـا لما　　كـابدتـه من أسى نـنسى أسـانـا
نـحـن يـاأخـت على الـعـهـد الذي　　قـد رضـعـنـاه من المـهـد كـلانـا!
شـرف لـلـمـوت ان نـطـعـمـه　　انـفـسـا جـبـارة تـأبـى الهـوانـا
انـشـروا الهـول وصـبـوا نـاركـم　　كـيـفـمـا شـئـتـم، فلم تلقوا جبانا
غـذت الأحـداث مـنـا أنـفـسـا　　لـم يـزدهـا الـعـسف إلا عـنفوانا

* * *

ومن هذه البلاد.. نقرأ لشاعر من الحجاز «محمد صبحي» هذه الأبيات من قصيدة نظمها معارضا بها قصيدة الشاعر السوري «سليمان الأحمد» ــ بدوي الجبل ــ والتي ورد فيها هذا البيت:

لـيـس في الأرض للضعيف حقوق　　طـمـع الأقـويـاء غـال الـسـلامـا

يقول «محمد صبحي» شاعرنا المنسي:

مـا أخـف الـشكوى وأحلى الملاما　　لـو يـكـونـان يـطـفـئـان الأوامـا!
مـا احـب الـعـتـاد لـو كـان ينجي　　مـن هـمـوم و يـبرىء الأسـقـامـا
مـا أعـز الـرجـاء لـو رد حـقـا　　والـتـمـنـي لـو حـقـق الأحـلامـا!
ذهـب الـيـوم كـل حـق اذا لـم　　يـصـطـحـب ذابلا و يشحذ حساما

«ليس في الأرض للضعيف حقوق» انما الحق للقوي استداما
طمع الأقوياء بز حقوقا «طمع الأقويا غال السلاما»

إلى أن يقول:

يابني أم والحوادث تترى سانح الوقت لايكون دواما
يابني أم ليس يجدي التواني لا ولا يثمر «الخلاف» وئاما
فاتركوا العتب والشكاية وامشوا لمجال الوغى، وخلوا الكلاما!
فاجعلوا من دم العدو مدادا واجعلوا من رماحكم أقلاما

ثم يمضي شاعرنا قائلا:

أيها المسلمون قد وضح الأمـ ـر، فخلوا الجفا، وخلوا الخصاما
وتعالوا للاتحاد، ولبوا داعي الحق، والزموا الاعتصاما
واستفيقوا فقد دهتنا الليالي ان فيها من الأمور عظاما

ومن نظم شاعر مكي ناشيء(١) في تلك الأيام هذه الأبيات من قصيدة، يخاطب فيها طغاة الاستعمار بعد أن اعلنوا غدرهم بالعهود المعطاة منهم للعرب وشنوا عليهم ارهابهم:

نحن لسنا نخشى المهالك حتى ترهبونا بالقوة الناريه
نحن قوم نهوى المعالي فلا نر ضى سواها، وغيرها أمنيه
نحن قوم، على الاباء جبلنا وفطرنا على الندى والحميه
خبرونا ياساسة الغرب، يامن قد تمادوا في الظلم والهمجيه
خبرونا. أين العدالة في الأحكـ ـام؟ أين الانصاف والحريه؟
خبرونا. أين التفاخر بالعلـ ـم؟ وأين الصياح بالمدنيه؟

ومنها:

حسبوا أن أمة العرب لا تفـ ـهم سير السياسة العصريه
فتغاضوا عما لها من حقوق ورموها بالجهل والوحشيه
وتغنوا بالأمس في مجلس الصلح بتلك المبادىء الولسنيه
اكثروا في مديحها واطالوا من حديث «الجمعية الأمميه»
هم أرادوا خداعنا، غير انا قد فهمنا اسرار تلك القضيه
وعلمنا بأن غايتهم، ان هي، إلا رهاق للبشريه
أين «ولسون» أيها القوم بل قو لوا لنا: أين راحت «الجمعيه»

(١) هو مؤلف هذا الكتاب

ومنها:

ليس في الغرب ما يسمى نظاما ليس فيه عدل ولا حريه!
انما هذه معان وألفا ظ لديهم، وأسطر شعريه

* * *

أيها الظالمون، أفسدتم الأر ض، وأرهقتموا جميع البريه
قد طغيتم على الأنام ودنستم نظام الطبيعة الكونيه
فاخبرونا: هل انتهى الغرب من تمثيل تلك الرواية الهزليه

* * *

ولم ينته الغرب طبعا.

بل في وسعنا أن نقول:

ما أشبه الليلة بالبارحة!

وما أشبه اليوم بالأمس!

ما اشبه احداث الساعة التي نعيشها الآن.. باحداث جسام، مرت بالأمة العربية. و بالعالم الاسلامي.طيلة النصف الأول من القرن العشرين!

ولئن كان قد بلغ من عنف هذه الأحداث انها اوجدت توترا وقلقا في النفوس إلى حد اليأس أحيانا فهي، من ناحية أخرى ــ قد اوجدت شيئا آخر اوجدت تصميما واصرارا ــ إلى ابعد مدى ــ على المقاومة والتحدي!

وقد كانت الأحداث بالنسبة للشعر ــ مصدر قوة، و باعث يقظة، و ينبوع الهام! لقد أثرت هي في الشعر، وأثر هو ــ بدوره ــ فيها!

ولم يحل بينه و بين أن يجاري الأحداث ولم يحل بينه و بين أن يساير روح العصر ــ أيضا ــ ويماشي التطور، و يتولى الريادة، ويحمل راية النضال انه شعر محافظ ــ كما اصطلحوا أن يقولوا ــ ليوحوا بذلك إلى الأجيال الصاعدة أنه شعر عتيق. لم يعد يصلح لعصر الفضاء!

على أن القافلة ــ مع ذلك ــ ما زالت تسير.

ومازال الشعر.. الذي هو الشعر.. هو الذي نصغى إليه فنطرب، أو نتلوه في صفحة من كتاب، فيبعث فينا أسمى العواطف و يهز نفوسنا!

* * *

ونسأل ــبعد ذلكــ ما دور الشعر في بلادنا؟

انه من الواضح أن ليس من السهل أن نردد من الآن.. ان الشعر في بلادنا قد بلغ المدى في متابعة حركة الشعر في العالم العربي.

لكنه. لايسوغ أيضا أن يتجاهل متجاهل أنه برغم العوائق ــوغالبها تاريخيةــ ان الشعر في هذه البلاد قد أخذــ منذ أن بدأت تستيقظــ يتابع الطريق..

فإذا كانت بعض البلاد الأخرى، قد سبقتنا إلى النهوض، وإذا كانت عوامل التطور والتقدم قد تهيأت لها أكثر.. وساعد ذلك على انطلاقة الشعر هناك، فان الشعر في مسيرته هنا، لم يتخلف على أي حال، وان كان يمكن الآ ننكر مع ذلك انه لم يصل ــفي مجموعهــ إلى المستوى المنشود!

على أن ذلك لايمنعنا من القول ان نفرا قليلا من شعرائنا اللامعين استطاعوا أن يصلوا إلى قريب من هذا المستوى، وأن يبدعوا في أكثر من ناحية.

و يهمني أن أركز هنا على ناحية من هذه النواحي، وأعني بها ناحية الشعر الوطني، والعربي، والاسلامي وحديثي الآن ــكما ترىــ هو عن هذا الديوان.

ومن الحق أن أقول ان الشعر في هذا الديوان نجد فيه صورة ذات ملامح، ولها سمات عن الشعر في بلادنا. في هذا الديوان نلتقي مع شاعر يحرص على أن يثير من ذكرياتنا وأن يستلهم من ماضينا ومن حاضرنا ومن كل حدث مثير كل ما يستحث العزائم و يدفع الى النهوض!

انها الحياة، لا معدى لشاعر اليوم من أن ينفعل بها، وان يجعل من شعره صدى لكل ما يضطرب فيها من احداث ومآس.. وما يدور فيها من صراع!

وشاعرنا ــمع ذلكــ كما هو ظاهر وواضح، لاتقل عنايته بالشكل اعنى بالصياغة والاسلوب عن عنايته بالمضمون!

صياغة محكمة، وعبارة سهلة ومعنى رصين.

سمات وخصائص نلحظها في غالب القصائد في هذا الديوان.

وإن كانت السمات أو الخصائص الأكثر بروزا هي ما المعت إليه من عناية شاعرنا عناية أكثر بالمضمون ثم عنايته أكثر من أي شيء آخر بالقضايا القومية والاسلامية وما يجري في الحياة!

وهذه هي في اعتقادي ميزة الشعر!

أن يكون شعرا نابعا من الحياة.. من صميم الحياة.. وأن يكون بالاضافة إلى ذلك. من أجل الحياة..

ميزته أن يعيش الشاعر «شاعرا» بأحاسيس المجتمع متجاوبا معه في كل قضاياه! ولن تعوزنا الشواهد في هذا الديوان.

ان عناوين بعض القصائد فيه تكفي للتدليل على مضمونها.. وأولى هذه القصائد ــ وغيرها على غرارها قصائد أخرى ــ قصيدته في «مصارحة البغاة المعتدين» اولئك الذين فرضتهم المطامع الاستعمارية فرضا و بكل ما تضمره من عداء للأمة العربية.

القى الشاعر قصيدته هذه بين يدي المغفور له الملك عبدالعزيز في عام ١٩٤٨م عام نكبة فلسطين.

وكما سبق أن قلت: ما أشبه الليلة بالبارحة فان الشعر المتأجج في عام ١٩٤٨ هو نفسه ــ في مضمونه الثائر على البغاة المعتدين ــ دائما نتمثله ونستوحيه.

والشاعر هنا انما يعبر لنا في هذه القصيدة عن قضية الشعب العربي في ذلك العام ضد العدوان الصهيوني الدنيء.. وهو يصور لنا في نفس الوقت طبيعة اليهود: تلك التي عرفها الناس عنهم في القديم والحديث، يقول شاعرنا:

لحا الله قوما، ناصبونا عداءهم ... وكل امريء منهم غوي وفاجر
لهم من صفات اللؤم كل دنيئة ... فكل امريء منهم زنيم وساخر
عهودهمو غدر العهود ودأبهم ... نكوص على الأعقاب بالويل دابر
وما الحلم في معنى الهوان، وانما ... رويدا فما في العرب للعهد غادر

نعم هؤلاء هم اليهود قد تعروا من كل صفات الرجولة والشرف.. كل صفاتهم هي اللؤم وكل عهودهم: غدر للعهود..

في عام ١٩٤٨ أيضا عندما تم تقسيم فلسطين بقرار من هيئة الأمم المتحدة.. نظم الشاعر قصيدة ثائرة أخرى يندد فيها بالأمم المتحدة، ومجلس الأمن، أو «مجلس اللا أمن» و يقول في هذه القصيدة:

مـن مـبـلـغ ولـه اجر ومحـمـدة عنى إلى الكون صوت الثائر الصخب
يـامجلس الأمن، أين الأمن ننشده وانـت بين لظى الأهوال في لهب؟
يـاهـيـئـة الأمم الكبرى، ووالهفي عليك من هيئة في كف مغتصب!
و يـاسـراة الـورى .مـن كـل محتلم يـرى الـورى داره المشدودة الطنب
هـنـئـتـمـوا ياقضاة الظلم فالتمسوا الحـق في عـرفه ضرب من اللعب!
هل استرحتم إلى التقسيم ويحكموا وهـل نجوتم به من وصمة الوصب
هنئتموا يـاقـضاة الظلم فالتمسوا نـتـائـج الـظلم بين الو يل والحرب

إلى أن يقول ــ وكأنما مر بخاطره هنا طيف صاحبه ابي الطيب المتنبي:

سـيـعـلـم الجـمـع ممن ضم مجلسهم وغير مجـلـسـهـم في كـل مـنـسـرب
سـيـعـلـم الـكـون في شتى مسار به في مسبح الحوت،أو في مسرح الشهب
ليست فلسطين ارضا:نهب مقتسم لـكل ذي سطوة،أو كل ذي نشب
لـكـنـهـا مـن قـلـوب العرب قاطبة تـعـيـش محـمـيـة في مـعـقـل أشب
عـاشـت فـلـسـطـين في عـز، ممـنـعـة وعـاش اعـداؤها في الذل والعطب

نعم.. عاشت فلسطين، وستعيش فلسطين، وسيعود الحق إلى نصابه باذن الله مهما طال الزمن، واستمر الكفاح.

ستعيش فلسطين، ولن يهدأ العرب والمسلمون حتى تعود الارض المقدسة لاصحابها الشرعيين.

لقد رأينا وشاهدنا في المحنة الأخيرة، كيف اعلنت الدنيا بأسرها سخطها المدمر العنيف ضد العدوان الصهيوني الغاشم ومن وقفوا وراءه من المستعمرين.

ولئن كانت القوى الجبارة قد اختارت لنفسها أن تتستر وراء عدوان صهيون وان تغدق عليه من سلاحها الفتاك بلا حدود بل ومن خداعها الشرير ما قد أحال هذه الملحمة من نصر كبير كنا معه على موعد لاشك فيه، إلى هزيمة لم تكن منظورة فلم يكن ذلك.. ولن يكون سوى حافز جديد كأقوى ما تكون الحوافز في حياة الأمم والشعوب.. حافز جديد، لايأس فيه ابدا ولا قنوط، لمتابعة النضال.

* * *

وما من ريب في أن قضية فلسطين، وهي القضية الأولى للعرب والمسلمين ــ دون جدال ــ قد كان لها في نفس الوقت اثر وأي أثر في بعث الفكرة الاسلامية من جديد في الشعوب الاسلامية، الفكرة الاسلامية في مدلولها الشامل العميق.

الفكرة الاسلامية الناصعة، في دعوتها الدائمة إلى تلاقي المسلمين، وإلى وحدة المسلمين.

ولم يكن عقد المؤتمر الاسلامي في «أم القرى» عام ١٩٦٤ إلا ثمرة من ثمار هذا البعث في اوساط المسلمين.

في ذلك العام شهدت وفود المسلمين لأول مرة بعد فترة من الزمن، ذلك الحفل الكبير تقيمه رابطة العالم الاسلامي و يرأسه جلالة الملك، في البلد الأمين.

ذلك الحفل الكبير لثاني مؤتمر اسلامي ينعقد في هذه المملكة بعد المؤتمر الأول عام ١٣٤٤هـ في هذا الحفل الاسلامي الكبير نستمع إلى الشاعر صاحب هذا الديوان يلقي قصيدته على العهد به في كل موقف مهيب.. وفيها يقول:

مرحبا بالوفود في كنف الله	أهلت، وفي رحاب الخلود
عقد الحب بينها، فتواصى	كل قلب بكل عطف وجيد
ما رأى الكون وحدة تتجلى	مثلها اليوم أمة في صعيد

ولنمض مع شاعرنا أيضا في قصيدة أخرى لا احب أن اختم كلمتي هذه.. قبل أن انقل هنا بعض أبياتها. انها قصيدة «دعوة الحق» ألقاها في حفل افتتاح الاذاعة اللاسلكية للمملكة العربية السعودية في شهر ذي الحجة من عام ١٣٦٩هجرية وقد رأس هذا الحفل سمو الأمير فيصل ــ جلالة الملك ــ نيابة عن جلالة والده الملك عبدالعزيز.

في هذه القصيدة ــ كغيرها من قصائد الديوان ــ روعة تأخذ بمجامع النفوس حقا يقول فيها:

حدثينا عن القرون الخوالي	ما الذي كان ياهضاب الجبال؟
حدثينا ففي الحديث حياة	هي للمبصرين أجدى مثال
ما الذي كان منذ فجر بعيد	اشرقت منه ساطعات اللآلي؟
يوم هبت من دعوة الحق تترى	صرخات تدك صم الجبال
يوم نادى «محمد» بالذي نا	دى إليه من رفعة وكمال!

إلى أن يقول:

ومـضـت دعـوة الهـدى في بلاغ ... وتـعـالى بـالحـق صـوت «بلال»!
رددي يـاشـعـاب مـكـة طوعا ... صيـحـة الحـق مـن وراء الجبال!
وابـعـثـي يـاشـعـاب مـكـة للآ ... فـاق بـالـنـور مشرقـا بـابـتـهـال!
حـدثـيـنـا أليـس حـقـا وصـدقـا ... مـاروتـه لـنـا الـقـرون الخوالي!
حـدثـيـنـا، ورددي في اتـئـاد ... مـا سمـعـنـاه مـن فـم الأجيـال!
كيف اصغت للمجد من كل صوت ... نـفـحـات الـنـفوس دون اختيال!

إلى أن يقول:

ذاك عـهـد مضى، وولى حـمـيـدا ... هـو فـخـر لـنـا، وفخـر الاوالي
زعـم الـنـاس والمضلـون كـثـر ... ان حلـم المـاضي بعـيـد المـنـال!
ذاك عـجـز. فـمـا لحاضر قوم ... أي فـخـر بـغير مـاض مـثـال!
فـانظر اليوم وارجع الطرف واسأل ... أي حـال تـبـدلـت بـعـد حـال؟
واسـأل الله في خـشـوع وذل ... أن يـقـي المـسلمين سوء المآل

ابيات فرائد.. لا أشك في أن القارىء يشاركني الرأي في سموها وابداعها.

انها تثير فينا كل معاني الطموح.

بل تثير فينا العزم وتثير فينا الاقدام.

تثير فينا: ارادة الحياة قوية عزيزة كريمة. وتهيب بنا أن نثق بأنفسنا وأن نؤمن بوجودنا وأن نستلهم من ماضينا المجيد كل الحوافز للعمل وللبناء.

نعم.. وهذا هو الشعر الذي نريد.

ان يكون ــ كما اسلفنا ــ نابعا من حياتنا. ومن اجلها! ان يكون مهمازا لنا وحافزا!

ان يكون الصدى لكل ما تهجس به نفوسنا. ونتوق إليه من معالي الأمور.

لقد اصبحنا في زمن كله صراع وتنازع على البقاء. زمن لم يعد يحتمل حياة الضياع.

زمن لم يعد فيه أي مجال لشعر اللهو، أو شعر الترف، أو شعر الفراغ.

زمن.. لم يعد فيه أي مكان لضعيف. أو متواكل أو «متقوقع» سادر في الأحلام.

زمن.. لم يعد فيه المجتمع الحديث ــ كما يقول احد الباحثين ــ يرضى للشعر أن يكون كالآنية المرصعة تسر الناظرين برونقها، وتثير اعجابهم بعجيب صنعها. فالعربي اليوم، يطمح إلى أن يجد في الأدب صدى وجدانه وحياته وواقعه. و يأمل أن يقع في الفن على ما يغذي روحه

و يتجاوب مع افكاره ومنازعه، ومع آلامه وآماله باعتباره انسانا قبل كل شيء.. ومواطنا ينتسب إلى شعب هو منه كالخلية من الجسم كما لم يعد بوسع الأدب العربي أن يستمر في عزلته المديدة عن المجتمع وما يضطرب فيه دون أن يساير الحياة، وان يؤثر فيها و يتأثر بها.

و بعد فيا قارئي العزيز: اراني قد أطلت.

ترى ايشفع لي في ذلك اغراء الموضوع، وانفساح مجال القول فيه وتعدد نواحيه؟

مهما كان الأمر فاني لا أخفي ولا استطيع أن اخفي اني لم أوف بعد في كلمتي هذه ما أردته لها من استقصاء وشمول:

وقد كنت احرص ما اكون على أن أخص العديد من القصائد في هذا الديوان ببعض الحديث فما استطعت. ومن هذه القصائد ــعلى سبيل المثال «الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة» وقصائده عن نسورنا الابطال من جنود المظلاتــ وانشاء الجامعة الأهلية، وتحيته للفتاة السعودية، وتحيته لأول صحيفة سعودية ــوأنشودة الحجــ والراحمونــ وسائلوا نجداــ ونهضة الشرقــ وجمال بلاديــ ومجد الوطنــ وثورة سياسيةــ ومهلا أغاديرــ ومن وحي بغدادــ ووقفة على أمجاد القيروانــ والشعر في حقيقتهــ وملحمة الحرب الكبرى وغيرها.

فان يكن فاتني ذلك، لأن الموضوع أوسع من أن تستوعبه مقالة.. فمعذرة لك وللأخ الصديق الشاعر صاحب «وحي الفؤاد» تحيتي.



عن الشاعر حافظ ابراهيم (١)

دعوة الاصلاح في شعر حافظ ابراهيم ، شاعر مصر المشهور، موضوع هام ولاشك ، وهادف في نفس الوقت.. يعود الفضل في اختياره ، لجامعتنا الفتِّية جامعة الملك عبدالعزيز.

وليس من شك في أنَّ الجامعة حين اختارت هذا الموضوع قد أحسنت الاختيار حقاً ، اولاً من ناحية الشاعر نفسِه ، فهو علم من أعلام الشعر في هذا العصر، جدير بأن يتجه نحوه البحث ، وأن يُعنى به النقاد، وثانيا من ناحية الموضوع ، إذ المعروف عن الشاعر حافظ ابراهيم ــ يرحمه الله ــ أنه كان أكثر شعراء مصر في زمنه التفاتاً إلى نواحي الاجتماع والاصلاح، إلى جانب عنايته البالغة بقضايا أمته السياسية بصورة عامة ، إن لم أقل ، بقضايا الشرق ، وقضايا المسلمين.

ومن أجل هذا كله ، كان حافظ ادنى إلى قلوب مواطنيه ، ومن أجله كرَّموه ــ كما نعلم ــ بأكثر من لقب.. فهو شاعر النيل ، وهو شاعر الشعب ، وهو شاعر مصر الاجتماعي، وشاعر الوطنية.

وليس من خلاف في أن حافظ ابراهيم ، حريٌّ وخليق بكل هذه الألقاب.

لقد كان حافظ لسان أمته الناطق، وصوتها الجهير،

كان حافظ المعبر عن آمالها وآلامها، وشؤونها وشجونها.

وهو ــ بشهادة معاصريه وكما سبق أن نوّهت ــ أكثر شعراء مصر والشرق ، اهتماماً بمصر والشرق.

كان حافظ يشكو و يئن.. وما أكثر ما كان يشكو و يئن.. من جمود الفكر، في عهد ساد فيه جمود الفكر، ومن تخلف امته ، وتخلف شعوب الشرق جميعاً في شتى الميادين.

كان أصدق الشعراء حباً لوطنه ، و براً به ، هذا ما قاله عنه الدكتور «محمد حسين هيكل» الأديب السياسي المعروف.

و يقول عنه «سامي الدهان» أحد الباحثين السوريين: «ما أعرف شاعراً من شعرائنا خص شعره بأمته واحداثها في العصر الحديث، كما فعل محمد حافظ ابراهيم ، كان جريدة مصر الناطقة، ولسانها المبين، وشاعرها الاجتماعي، وترجمان بؤسها وآلامها».

---

(١) بحث القاه المؤلف في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين المنعقد في مكة المكرمة عام ١٣٩٤ هـ

هذا هو حافظ شاعر الشكوى والأنين، وشاعر البؤس والألم، ليس من أجل نفسه فحسب.. وانما في صورة أنصع، من أجل الناس الآخرين.

ومن الحق أن أقول إن امته الوفية، قد عرفت له كل هذا. عرفت له صدق حبه لها. عرفت له اخلاصه في كل ما كان يشكو منه و يئن وفي كل ما كان يدعو إليه من اصلاح ونهوض.

عرفته له مصر.. بل وعرفته له شعوب الشرق، فأولاه الجميع حبا بحب وأعطوه من تقديرهم واكبارهم، ما لم يحظ به ــ فيما أعلم ــ أي شاعر آخر من شعراء جيله الكبار.

وقد كان حافظ، يقسو أحياناً: في نقده لمواطنيه، كان يقسو إلى درجة التأنيب، وله في ذلك أبيات روائع ــ ومع هذا.. كان مواطنوه جميعاً، يتقبلون منه هذه القسوة برضا وارتياح

يقول عنه صديقه «حفني محمود» كانت شخصية حافظ من أحب الشخصيات إلى الناس.. ثم يضيف إلى ذلك قوله: «..وهو في كثير من الأحيان، يكون قاسياً في صراحته، ولكن روح الاخلاص البارزة في شعره كفيلة بأن تسيغ صراحته، وتجعلها شهيَّةً مُحببةً».

ولنستمع إليه في أبيات له مشهورة.. صبَّ فيها جام غضبه على قومه. آنذاك نذكرها كمثال من قسوة حافظ، ومن عنفه في نقده الاجتماعي، عندما يشتد به ألمه.

يقول حافظ وهو يُندد بفئات من الناس، قد لايخلو منهم زمن، ولا مكان، قصارى همهم أن يفخروا بمن سبقهم:

وذي إرث يُكاثرنا ... بمالٍ غير مُكتسبِ
وفي الرومي موعظة ... لشعب جد في اللعب

إلى أن يقول:

فقل للفاخرين أما ... لهذا الفخرِ من سببِ؟
أروني بينكم رجلاً ... ركينا واضح الحسبِ
أروني نصف مخترعٍ ... أروني ربع محتسبِ
أروني نادياً حفلاً ... بأهل الفضلِ والأدبِ

ثم يقول:

فهبوا من مراقدكم ... فان الوقت من ذهبِ
فهذى أمة اليابا ... ن..جازت دارة الشُّهُب

فهذا مثال من شعر حافظ ابراهيم، عندما كان يقسو في نقده للمجتمع.. مهيبا به إلى النهوض، ليجاري أمماً جازت دارة الشهب، وكانت اليابان في ذلك الوقت قطعت شوطاً كبيراً في نهضتها.. ولفتت إليها الأنظار، حينما خاضت حرباً عنيفةً مع القيصرية الروسية، خرجت منها منتصرة!

إن حافظاً في شعره هذا القاسي العنيف، إنما يعبر ـ في الواقع ـ عن صدق حبه لوطنه، واخلاصه له، وغيرته عليه.

وهو في صدقه، واخلاصه، وغيرته، ليس له من مأربٍ سوى الاصلاح، ولا شيء غير الاصلاح.

وهو قلما كان يقسو، وقلما كان يشتد، وأنى للمحب الولهان، أن يقسو و يشتد.. إلا في أندر الأحيان!

واذا كان حافظ، قد تميَّز ـ كما هو ملحوظ ـ بأنه كان أكثر شعراء عصره ـ ومنهم شوقي ـ مناداةً بالاصلاح، وإمعاناً ـ لهذا السبب ـ في اللوم والتقريع، إلى جانب ما كان يترنم به في جُل شعره «في حب مصر كثيرة العشاق» على حد تعبيره في إحدى قصائده الذائعة.. فالسر في ذلك ـ كما يذكر كل من ترجموا لحياته ـ يعود إلى ظروف حياته الخاصة والعامة.. فقد ولد حافظ ونشأ في أوساط الشعب.. بعيداً عن أي جو يوصف بالارستوقراطي.. يضاف إلى ذلك أنه أحس بالحرمان منذ صباه، وربما في أكثر حياته.. وكان طبيعياً في ظروف كهذه الظروف، أن يلتصق حافظ بأفراد الشعب أكثر، وأن يمتزج بكل طبقة من طبقاته على اختلافها، ومن هنا كان تعاطفه أصيلا معها.. وإحساسه متجاو بأ مع إحساسها، لقد أدرك ما يعانيه الشعب يومذاك.. عرف سر الداء، فلا غرو إذن ـ أن يتميَّز أكثر من غيره، من أقرانه ومعاصريه، بأن يصبح شاعر الشعب، المصور لآلامه وهمومه، والمنادي بالاصلاح.

و يذكر عنه مترجموه أن ظروفه هذه لم تمكنه من بلوغ أقصى مراحل التعليم، غير أنه استعاض عن ذلك بسعة اطلاعه على الأدب العربي، و بكثرة محفوظه من عيون الشعر، لقد كان لحافظ من اسمه نصيب حقاً ومن هنا كانت ثقافته الأدبية، وعلمه الواسع باللغة، مضرب الأمثال.

وكان لهذا كله أثر ملحوظ في شعره، فاسلوب حافظ ولا شك هو أجود الأساليب، لقد اشتهر حافظ بأسلو به القوي، بأسلو به الرائع، وكان لذلك، إذا قال شعراً، لا يلبث أن تتناقله الأفواه، وتتلمَّظ بحلاوته الشفاه، كما يقول الاستاذ عبدالقادر المغربي، عالم اللغة الكبير، ونائب رئيس المجمع العلمي بالشام.

أيضا يقول الاستاذ المغربي:

«شعر حافظ يمتزج بالعاطفة، فيولد فيها رقة الشعور، ويمتزج بالنفس فيولد فيها ذوق اللغة، ويمتزج باللسان فيغرس فيه ملكة الفصاحة.

مدارسة كتب الأدب، واستظهار الفصيح من نوادر اللغة لا يمنح النفس واللسان ملكة الفصاحة بقدر ما يمنحها شعر كشعر حافظ.. نقيٌّ اللفظ، منسجم الأسلوب، مشرق الديباجة، يُعَبِّرُ عن خوالج النفس الوطنية الثائرة، فيحفزها نحو مطامحها العظمى، و ينير أمامها الطريق إلى مثلها الأعلى».

هذا الأسلوب الذي عُرف به حافظ ابراهيم، بين شعراء عصره، وارتفع به إلى ذروة البيان، وأصبح به واحداً من شعراء ثلاثة كبار، هم أشهر شعراء العربية في الثلث الأول من القرن العشرين: شوقي وحافظ وخليل مطران.. هذا الأسلوب المؤثر الجميل، كان في الواقع، ثمرة ثقافة غير عادية في الأدب العربي، واللغة العربية.

فإذا ما التفتنا إلى ناحية أخرى من نواحي شخصية هذا الشاعر الفريد، أو من نواحي ثقافته العامة، ومنابع هذه الثقافة.. وجدنا مواطنه الاستاذ احمد أمين يشير إلى مصدر من مصادر ثقافته، في مقدمته لديوانه.. فيقول:

«كان من مصدر ثقافته، تجاربه الواسعة، فقد أتاح له بؤسه الامتزاج بغمار الناس، ومجالستهم ومشاركتهم في الخير والشر، ومطارحتهم النكات والنوادر، كما مكن له ظرفه وأدبه، أن يتصل بسادة الناس وقادتهم: يسمع لحديثهم، و يسمعون لأدبه، وأن يتصل برجال النهضة الوطنية، فيأخذ عنهم، و يلتهب حماسة من حماستهم، ويمتلىء وطنية من وطنيتهم».

وشيء آخر ـ يقول الاستاذ احمد أمين ـ يُعدُّ مصدرا كبيرا من مصادر ثقافته، وهو كثرة غشيانه لمجالس العلماء، وقادة الرأي في الأمة، فقد اتصل بالاستاذ الشيخ محمد عبده، وعدَّ نفسه فتاه.. وكان يحضر بعض دروسه التي يلقيها على نخبة من الفضلاء في منزله بعين شمس، ويجلس في مجالسه، وقد يصحبه في أسفاره، ثم يغشى مجالس أمثال سعد زغلول ومصطفى كامل ونحوهم، وكانت مجالسهم مدارس من أرقى المدارس، تطرح فيها المسائل العلمية، والمعضلات السياسية، والمشكلات الاجتماعية، وتعرض فيها الحلول المختلفة، وتبسط فيها أدواء الأمم، وكيف عولجت، وما إلى ذلك.. وحسبك بمدارس ـ يقول الاستاذ أمين ـ كان المعلم فيها أمثال «محمد عبده» و«سعد زغلول» و«مصطفى كامل» ولعلَّ هذا كان أكبر منبع استقى منه حافظ أفكاره التي صاغها في شعره».

هذا ما يرو يه لنا عن حافظ أوثق من كتبوا عنه من كبار الباحثين، المرحوم الاستاذ احمد أمين، ومنه نستخلص أن حافظاً شاعر النيل، وشاعر الوطنية، وشاعر مصر الاجتماعي، وشاعر البؤس والألم، والشكوى والأنين.. ما كان يقول الشعر، لمجرد رغبته في القول، أو لمجرد عشقه للشعر، أو ليملأ الدنيا، و يشغل الناس، وإنما كان حافظ في أكثر شعره، وخاصة في المجال الاجتماعي، شاعر عقيدة، شاعر مبدأ، شاعر وجدان، أو كما نقول ــ في لغة اليوم ــ شاعر التزام!

وطبيعي أن من أسباب ذلك، هو أولاً: ظروف حياته الخاصة، وأهمها ــ كما سبق أن أشرت ــ نشأته في الوسط الشعبي، ثم كثرة اختلاطه بالناس، معايشته لهم.. امتزاجه بهم امتزاج حب ومشاركة وجدانية، كل هذا جعل منه إنساناً متعاطفاً مع الناس، مُتحسِّساً لأحاسيسهم، ملمّاً بشؤونهم، مدركاً لهمومهم، فلا غرو، وهذا جانب من جوانب حياته الخاصة، أو العامة إن شِئنا أن يجيء شعره تصو يراً لحياتهم، أو تعبيراً عنها.. إن حافظاً هو في الحق «شاعر الناس» كما يقول طه حسين.

شاعر الناس!

أجل.. ما أبلغه وصفاً موجزاً، معبراً وموحياً.. يصفُ به عميدُ الأدب في مصر، شاعر بلده حافظ ابراهيم.

رافد آخر أيضاً.. أتاح لهذا الشاعر الكبير أن يكون شعره تصو يراً لحياة الناس، أو تعبيراً عنها.. وأن يكون ــ بالاضافة إلى ذلك ــ شعراً قو ياً، يهز النفوس!

هذا الرافد، هو ما ذكره الاستاذ احمد أمين، عن كثرة غشيانه لمجالس العلماء، وقادة الرأي في الأمة، واتصاله بهم، وخاصة: محمد عبده، ومصطفى كامل، وسعد زغلول.

هؤلاء الرجال الثلاثة، لاخلاف في أنهم نخبة من ظهروا في مصر، بين قادة الرأي في العصر الحديث.

وكان من حسن حظ حافظ ــ ولا جدال أن التقى بهم، وصاحبهم، وتتلمذ لهم، واستفاد من حضوره مجالسهم، واستماعه لما يدور فيها من مناقشات، سواء في العلم، أم الأدب، أو السياسة والاجتماع.

لقد كانت صلة حافظ بهؤلاء الأقطاب، على ما كان بينهم جميعاً، من خلافٍ في السياسة، وفي الرأي، مما هو ليس بمجهول.. كانت صلته بهم كأقوى ما تكون صلة.. وولاؤه لهم، كأعظم ما يكون ولاء.

وليس أدل على ذلك، من قصائد رثائه فيهم، وهي أصدق وأجود قصائد رثاء، قيلت في هذا العصر، ووُصف حافظ من أجلها، بشاعر الرثاء!

وغير هؤلاء أيضا، من رجال الفكر، كان حافظ وثيق الصلة بهم، ولقد أعانه على ذلك خصال اجتمعت فيه.. فهو ألوف ودود، سمح متواضع، مرح إلى أقصى حدود المرح، عذب الحديث، كثير النوادر.. يقول زكي مبارك في وصفه لأحاديث حافظ: «إن الدنيا كلها لا تساوى لحظة في حضرة حافظ ابراهيم.. فيا رحمتا لمن صرفتهم الشواغل أو المقادير عن أحاديث حافظ ابراهيم، فان هؤلاء حُرموا من خير كثير.. إلى آخر ما يقوله المبارك.

فليس غريباً وهذه هي نشأة حافظ وظروفه، وهذه هي صلاته الودية بالناس، و بينهم علماء كبار وساسة وقادة فكر وزعماء وطنيون، وزعماء إصلاح، مع ما توفر فيه من خصال، تحببه إلى كل هؤلاء.. أقول: ليس غريباً وهذا هو حافظ أن يكون نسيج وحده، شاعراً وطنياً، اجتماعياً، يهيب بأمته أن تنهض، و يدعو في بلاده إلى الاصلاح.

كانت مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر، قد وقعت فريسةً لاحتلال بغيض، استمر إلى زمن قريب، وقد نشأ عن هذا الاحتلال الأجنبي الوافد إلى مصر.. مالا بد أن ينشأ، وما لابد أن يكون!

نشأت في نفوس الناس، بسبب هذا الاحتلال المداهم، حالة يأس مريرة، كادت تستبد بهم.. هذا إلى جانب ما وصلت إليه البلاد من تخلف شاملٍ، في أكثر من ميدان.

وهذا التخلف الذي وصلت إليه مصر، وأحس به ابناؤها، كان في الواقع سائداً في كل أقطار المسلمين.

ومن مكر الاحتلال الأجنبي في مصر ــ كما هو ديدنه في كل مصر ــ تخطيطه الخبيث للابقاء على التخلف، ومقاومته للاصلاح.

وليس من مجال هذا البحث، تسجيل ما قد نجم عن هذا الاحتلال من أسوأ الآثار في البلد الشقيق.

غير أنه من الواجب الاشارة إلى ما قد نشأ من رد الفعل في أعقاب الاحتلال.

كان من آثار هذا الاحتلال أنه أيقظ الوعي العام.

وفي هذه الفترة بالذات كانت هناك صحف تندد بالاحتلال!

وكان الزعيم الشاب «مصطفى كامل» زعيم الحزب الوطني ــ و بتأييد من الخديوي في بادىء الأمر ــ على رأس المقاومين للاحتلال.

والمعروف عن مصطفى كامل أنه كان في سياسته وفي نضاله الوطني إسلامي النزعة، وكان ينادي بوجوب ارتباط مصر بالدولة العثمانية، على اعتبار أن سلطان العثمانيين هو خليفة المسلمين، وهو الرمز الباقي للوحدة الاسلامية.

والحق أن مصطفى كامل، له فضل في النضال الوطني، إلى حد بعيد، وفي تجسيد مقاومة المحتلين، وكانت خطبه الحماسية ومقالاته النارية في جريدته اللواء.. تلهب المشاعر، وتثير النفوس.

وكان لهذا كله، أثره في نفوس الشعراء الوطنيين، ومنهم، بل في مقدمتهم حافظ ابراهيم.

في ميدان آخر.. كان الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي مصر في ذلك الوقت يتابع نضاله ومعه تلاميذه في مجال الاصلاح الديني.

كانت دعوة الشيخ محمد عبده، دعوة سلفية — كما هو معروف — وكان على رأس أتباعه السيد رشيد رضا.

كان يدعو إلى العودة بالدين إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة، وتنقيته مما دخل عليه في عصور التخلف من بدع وخرافات.

وانتشرت أفكار كل من مصطفى كامل، ومحمد عبده، وظهر الكثيرون من أصحاب الأقلام يشاركون بحماس واخلاص، في الميدانين، ميدان مقاومة الاحتلال، وميدان الدعوة إلى الاصلاح.

في ميدان الدعوة إلى الاصلاح، ونتيجة لتبدل الأفكار، ونمو الوعي.. استجدت هنالك أمور وأمور، منها ما يتعلق بالتعليم، و باللغة العربية، ومنها ما يتعلق بالمرأة، إلى آخر ما هناك.

وانبرى كل صاحب رأي وفكر، وكل صاحب قلم، يسهم بدوره في كل هذه المجالات، أو في بعضها، سواء عن طريق الكتب، أم عن طريق الصحافة، أم عن طريق المحاضرات.

وكان بديهياً أن يكون للشعر، نصيب الأسد — كما يقول المثل — في كل مجال من مجالات الرأي، حول هذه الأمور.

كان الاصلاح هو الهدف، وكانت الدعوة إليه قوية وسليمة بعد أن أيقن الوطنيون، أن لابد من اصلاح مهما كان من تعنت المحتلين، في مقاومتهم للاصلاح.

ونسأل ونحن ندخل في صميم البحث: ما هو دور الشعر — بصورة خاصة — في هذا النضال منذ أخذ ينمو باطراد في مصر في أوائل القرن العشرين؟

وما هو دوره فيما أوجده هذا النضال من حركة في الأفكار؟

ثم ــ أخيرا وليس آخراً ــ ما هو دوره في الدعوة إلى الاصلاح ؟

من الواجب أن نؤكد أن دور الشعر في هذه الفترة، كان بارزاً بروزاً واضحاً، بل ليس من المبالغة إن قلنا ان دور الشعر كان أكثر بروزاً ووضوحاً.. ربما أن السبب في ذلك أن الشعر كان السابق في النهضة، والسابق في الازدهار.
لقد نبغ في مصر في تلك الفترة أشهر شعرائها إلى اليوم.

كان هناك أحمد شوقي وحافظ واسماعيل صبري وحفني ناصف، وخليل مطران بعد أن استوطن مصر.. ثم السيد البكرى واحمد محرم ومحمد عبدالمطلب وغيرهم، وغيرهم.

وقبل هؤلاء جميعاً.. ظهر في مصر محمود سامي البارودي، وهو الذي يعتبرونه بحق، رائد البعث الشعري الحديث.

وغني عن البيان أن لكل واحد من هؤلاء الشعراء الكبار، دوره في الحركة الفكرية، واسهامه في دعوة الاصلاح.

لأن تلك النهضة الشعرية نفسها إنما تميزت وأينعت، باسهام شعرائها في تلك الحركة، وفي ذلك النضال!

كان لكل منهم أثره في الميدان.. كان لكل منهم شعر، يعبر عن اهتمام بالمجتمع، وان كان اهتمام كل منهم يختلف.. و يبدو لي أن ثلاثةً منهم، كانوا أوفر نصيباً، وأغزر انتاجاً من بقية زملائهم.. وأعني بهم: شوقي وحافظ واحمد محرم.

والحق أن شوقي، برغم مركزه الرسمي ــ وللمركز الرسمي في كل الأحوال ظروفه ــ ما كان ليدع أية مناسبة ذات صلة بقضايا المجتمع وشؤون الاصلاح إلا و يدلي فيها بدلوه، و يشارك فيها بروائع من شعره ما تزال تُحفظ إلى اليوم.

وكان احمد محمرم وهو شاعر الحزب الوطني أكثر انطلاقا وتحرراً بطبيعة الحال من احمد شوقي!

أما بالنسبة لحافظ ابراهيم فلا شك أن الأمر هنا يختلف. نعم فانه إذا قيل إن شوقي مثلاً.. لايسبقه حافظ في دولة الشعر، وربما ــ في رأي البعض ــ لايجاريه.. إلا أنه مما لا اختلاف فيه أن ميزة حافظ تبدو منفردةً وحدها بالسبق عندما ننظر إليه من ناحيته الشعرية الخاصة، وهي تفوقه وابداعه ــ أكثر من سواه ــ في الميدان السياسي والاجتماعي، وفي الدعوة إلى الاصلاح.

لقد كان حافظ، كما سبق القول، هو الذي وُصف بشاعر الوطنية، وشاعر الشعب، وواضح أن حافظاً لم يصل إلى هذه المنزلة في نفوس مواطنيه، إلا لأنه كان أكثر اتصالاً بنفوسهم.. وأكثر تعبيراً عن شؤونهم وشجونهم.. وأكثر تغنّيا بحب الوطن، وأجهر صوتاً في دعوة شبابه وشيوخه إلى التيقظ والنهوض.

فعن وطنيته يحدثنا عبد الرحمن الرافعي، فيقول:

«تتجلى الروح الوطنية، و يتألق نورها في شعر حافظ، ولقد وجدت الحركة الوطنية في قصائده البديعة قوة تستمد منها الحماسة والصمود في الجهاد، والثورة على الاحتلال.

كان شعره معيناً لا ينضب من الكفاح الوطني، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه، و يلهمه الذود عن حريته واستقلاله، ولقد عبّر عن هذه العاطفة الملتهبة بقوله من قصيدة له سنة ١٩٠٠:

متى أرى النيل لاتحلو موارده — لغير مرتهب لله مُرتقب
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت — جادت دموعي لها باللؤلؤ الرَّطِب
كأنني عند ذكري ما ألمَّ بها — قَرْمٌ تردَّد بين الموت والهرب
إذا نطقت فقاع السَّجن متكأٌ — وإن سكتُّ فان النفس لم تطبِ
أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا — ونحن نمشي على أرضٍ من الذَّهبِ؟

وقوله في قصيدة سنة ١٩١٠:

كم ذا يكابد عاشق و يلاقي — في حب مصر كثيرة العشاق؟
إنــي لأحمل في هواك صبابة — يامصر قد خرجت عن الاطواق
لهفي عليك متى أراك طليقة — يحمي كريم حماك شعب راق
كَلِفٌ بمحمود الخلال مُتَيَّم — بالبذل بين يديك والانفاق

ذلك ما يقوله و يستشهد به، مؤرخ مصر الحديثة، حول وطنية حافظ ابراهيم.

ونحن إذ نردد هذا القول، عن وطنية حافظ.. فانما نردده لأن فيه أبلغ دلالة على ما سبق أن ذكرناه عنه وأكدناه.. ولأن هذه الوطنية المخلصة، كانت في الواقع هي الدافع والحافز وراء شدة هيام حافظ بالاصلاح، ومتابعة دعوته لقومه في كل مناسبة تسنح.. وعند كل حادث يقع.. إلى اثبات وجودهم في الحياة، وإلى محاربة كل عوامل الضعف والتخلف.. وكان من رأيه ورأي غيره من الوطنيين أن الاحتلال البغيض من أهم أغراضه الابقاء على هذا الضعف، والوقوف في وجه كل صلاح، شأنه في كل بلاد أخرى أتيح له أن يسيطر عليها.

ولقد كان من خطط الاحتلال، ومن أبعد أهدافه، أن يقضي على أهم مقومات الأمة، وطبعاً ليس أهم هذه المقومات، بالنسبة لمصر.. و بالنسبة لكل أمة عربية أخرى سوى لغة القرآن: اللغة العربية الفصحى، وعبثاً حاول المحتلون أن يتحقق لهم ذلك، حاولوه بأكثر من أسلوب.. حاولوه أولاً بفرض لغتهم في التعليم، وحاولوه ثانياً بايعازهم لبعض موظفيهم وأتباعهم، باثارة قضية لم تكن ذات موضوع، ولم يكن لها من مبرر سوى الرغبة المبيَّنة في تحقيق واحد من أهدافهم.

أثاروا قضية اللغة العربية.. وكأنها مشكلة المشكلات، أثاروها لا لشيء.. إلا لغرض محوها.. باحلال اللغة العامية مكانها.

في سنة ١٩٠٠م هبط مصر، واحد من رجالهم، يُدعى «و يلمور»، ماذا فعل مستر و يلمور هذا؟ إنه بمجرد وصوله، أو هبوطه، أخذ يذيع دعوته في الناس.دعوته إلى اللغة العامية، ظل الرجل يكتب ويخطب، ويحاور و يناظر، دون كلل أو فتور.. ولم يكفه ذلك.. بل أضاف إليه أنه ألَّف كتاباً ونشره بين المصريين يدعوهم إلى فكرته، وهو يأمل أن يقنعهم بها.

واضطرب المصريون أمام هذه الدعوة، وجزعت لها نفوسهم، وتبارت الأقلام في الصحف: تندد بهذه الدعوة وتنكرها.. وكان فريق من الأتباع، الوافدين إلى مصر في ذلك العهد.. يقفون إلى جانب «و يلمور».

وفي هذا الصدد، يقول الاستاذ عبدالقادر المغربي، في كلمة له عن هذه القضية:

«ومما يؤسف له أن يجد «و يلمور» أنصاراً له من الشعوبيين شايعوه على رأيه، وأقاموا ضجةً في القطر المصري، اهتزت لها البلاد العربية قاطبة، وكادت تكون لو يلمور وأشياعه الغلبة لو لم تصدمهم نهضة حماة اللغة الفصحى، وفي طليعتهم.. حافظ ابراهيم، فيرفع صوته في وسط تلك الضجة، منشداً قصيدته الخالدة على لسان اللغة الفصحى تخاطب أبناءها وتسألهم نصرها وإغاثتها، وتقول:

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي؟
ولو تزجرون الطير يوماً علمتمو ... بما تحته من فرقة وشتات

ثم تلوم الصحف على خوضها في هذا الموضوع، فتقول:

أرى كل يوم في الجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناةِ
وأسمع للكتَّاب في مصر ضجَّةً ... فأعلم أن الصائحين نُعاتي

* * *

ولقد كانت قصيدة حافظ هذه، من أروع ما قيل يومها.. واشتهرت في سائر أنحاء مصر والعالم العربي، واستقبلها كل ناطق بالضاد بالاكبار والاعجاب. وفيها يقول حافظ على لسان اللغة:

سقى الله في بطن الجزيرة أعظُما ... يعز عليها أن تلين قناتي!
حفظن ودادي في البلى، وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسراتِ

* * *

أيهجرني قومي عفا الله عنهمو ... إلى لغة لم تتصل برواةِ؟
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى ... لُعاب الأفاعي في مسيل فراتِ
فجاءت كثوبٍ ضمَّ سبعين رقعة ... مُشكَّلة الألوان مختلفات

ثم يقول:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضِقتُ عن آي به وعظات:
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعاتِ؟
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي؟

هذه القصيدة الحافظية الفريدة، لاشك في أنها رائعة كل الروعة، رائعة في بلاغتها وصدقها، وموضوعها ــ كما نرى ــ انها تدعونا وتغرينا بأن نتابع إيراد أبيات أخرى منها، تقول اللغة العربية، أو يقول حافظ على لسان اللغة العربية، مشيراً، إلى أن الغربيين إنما نالوا ما نالوه من عز، حين عزت لغاتهم:

هاهي ذي الفصحى تقول:

أرى لرجال الغرب عزاً ومنعةً ... وكم عز أقوام بعزِّ لغات!
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً ... فياليتكم تأتون بالكلمات!

وفي ختام القصيدة توجه دعوتها إلى الكتَّاب، قائلة في نُصح:

إلى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعث الميت في البلى ... وتنبت في تلك الرموس رفاتي
وإما ممات لاقيامة بعده ... ممات ــ لعمري ــ لم يُقس بمماتِ

وما بنا من حاجة إلى القول ان هذه القصيدة الشاكية.. كان لها أجل وقع، وأعظم صدى،

بل كان لها أيضا أثرها الايجابي في إخفاق دعوة مستر و يلمور وسائر أتباعه ومشايعيه ، وعاد الرجل إلى بلاده بعد أن ذاق مرارة الخيبة .. وانتصرت لغة القرآن!

* * *

وفي سنة ١٩٠٨ عندما هبت مصر لتحقيق فكرة الجامعة المصرية ، بعد جدل طو يل أثير حول هذه الفكرة، وكان هناك معارضون لفكرة الجامعة بتحريض من المحتل .. زاعمين أن مصر آنذاك ليست في حاجة إلى جامعة ، بقدرما هي في حاجة إلى الاكثارمن نشر التعليم الأ ولي إلى آخر ما كانوا يذيعون ، وقد باءت مزاعم المعارضين بالخيبة هي الأخرى ، وتنادى المخلصون من سائر انحاء القطر إلى وجوب تعضيد هذا المشروع وانهالت تبرعات الأ ثرياء لتمو يله ، وكان حافظ في طليعة المنادين بتعضيده ، فنظم قصيدة ، قال فيها :

حياكم الله أحيوا العلم والأدبا ... إن تنشروا العلم،ينشرفيكم العر با
فلا حياة لكم، إلا بجامعة ... تكونُ أُمّاً لطلاب العلا وأبا!
تبني الرجال، وتبني كل شاهقةٍ ... من المعالي، وتبني العز والغلبا
ضعوا القلوب أساسا لا أقول لكم ... ضعوا النضار، فإني أُصغر الذهبا!
وابنوا بأكبادكم سورا لها،ودعوا ... قيل العدو..فإني أعرف السببا!
لا تقنطوا إن قرأتم ما يُزوّقه ... ذاك العميد..و يرميكم بهغضبا
وراقبوا يوم لا تغني حصائده ... فكل حيٍّ سيُجزى بالذي اكتسبا
وجاو بوه بفعل لا يُقوّضُه ... قولُ المفند أنى قال أو خطبا!
لا تهجعوا..إنهم لن يهجعوا أبداً ... وطالبوهم..ولكن أجملوا الطلبا

* * *

وفي سنة ١٩١٠م نُشرت له قصيدته الشهيرة، التي يحث فيها على إعانة إحدى مدارس البنات، وفيها يقول:

إني لتطربني الخلال كريمةً ... طرب الغريب بأو بةٍ وتلاقي
وتهزني ذكرى المروءة والندى ... بين الشمائل هزة المشتاق
فاذا رزقت خليقة محمودةً ... فقد اصطفاك مقسم الأ رزاق
فالناس هذا حظه مال، وذا ... علم، وذاك مكارم الأخلاق
والمال إن لم تدخره مُحصَّناً ... بالعلم..كان نهاية الاملاق
والعلم إن لم تكتنفه شمائل ... تُعليه..كان نهاية الاخفاق
لاتحسبن العلم ينفع وحده ... ما لم يُتوّج رَبُّه بخلاق!

ثم يقول:

من لي بتربية النساء فإنها ... في الشرق علّةُ ذلك الاخفاقِ
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض.. إن تعهّده الحيا ... بالرِّيِّ أورق أيّما إيراق
الأم استاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاقِ

إلى أن يقول:

ربوا البنات على الفضيلة انها ... في الموقفين لهن خير وثاق

وفي قصيدة أنشدها في حفل أقامته مدرسة مصطفى كامل لتوزيع الجوائز على المتقدمين من تلاميذها، يقول مشيراً إلى ما سمعه في الحفل من أشعار وخطب تنوه بالتعليم و بالعلم:

سمعنا حديثاً كقطر الندى ... فجدَّد في النفس ما جدَّدا
فأضحى لآمالنا مُنعشاً ... وأمسى لآلامِنا مُرقدا
فديناك ياشرق لاتجزعن ... إذ اليوم ولى فراقب غدا
فكم محنةٍ أعقبت محنةً ... وولّت سِراعاً كرجع الصَّدى
فلا يئيسنّك قيل العُداةِ ... وإن كان قيلا كحز المُدى
أتودع فيك كنوز العلوم ... ويمشي لك الغرب مسترفدا؟
وتُبعثُ في أرضك الأنبياء ... و يأتي لك الغرب مسترشدا؟

ويمضي فيها إلى أن يقول:

أيجمل من بعد هذا وذاك ... بأن نستكين وأن نجمدا؟
فيا أيها الناشئون اعملوا ... على خير مصر وكونوا يدا
ستظهر فيكم ذوات الغيوب ... رجالا تكون لمصر الفِدا
فياليت شعري من منكمو ... إذا هي نادت يُلَبي الندا؟

وكثيرا ما كان حافظ يخاطب الشباب، يستنهض منهم الهمم، ويحثهم على الجد في طلب العلوم، وانتهاج مكارم الأخلاق، ومن قصائده التي ضمَّنها هذا الموضوع، قصيدته في تحية العام الهجري، عام ١٣٢٨ هـ وقال فيها:

أهلاً بنابتة البلاد ومرحباً ... جدَّدتم العهد الذي قد أخلقا
لا تيأسوا أن تستردُّوا مجدكم ... فلرب مغلوبٍ هوى ثم ارتقى

مدّت له الآمال من أفلاكها خيط الرجاء إلى العلى فتسلقا
فتجشموا للمجد كل عظيمة إني رأيت المجد صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً إلى آماله.. وتعلّقا
عار على ابن النيل سبّاق الورى مهما تقلّب دهره أن يُسبقا

ثم يقول:

فتعلموا فالعلم مفتاح العُلا لم يبق باباً للسعادة مغلقا
ثم استمدوا منه كل قواكموا إن القويَّ بكل أرض يُتّقى
وامشوا على حذرٍ فان طريقكم وعر.. أطاف به الهلاك وحلّقا

وفي قصيدة أنشدها بمناسبة افتتاح ملجأ الحرية يقول:

يارجال الجد هذا وقته آن أن يعمل كل ما يرى
ملجأ.. أو مصرفاً.. أو مصنعاً أو نقابات لزراع القرى
أنا لا أعذر منكم من ونى وهو ذو مقدرة أو قصّرا
فابدأوا بالملجأ الحر الذي جئت للأيدي له مستمطرا
واكفلوا الأيتام فيه واعملوا إن كل الصيد في جوف الفرا
أيها المثرى ألا تكفل من بات محروما يتيماً مُعسِرا
أنت ما يدريك لو أنبتّه ربما اطلعت بدراً نيِّرا!
ربما أطلعت «سعداً» آخراً يُحكم القول و يرقى المنبرا
ربما أطلعت منه «عبدَه» من حمى الدين وزان الأزهرا
ربما اطلعت منه شاعراً مثل «شوقي» نابهاً بين الورى

ونلاحظ إشارته في الأبيات الثلاثة الأخيرة إلى سعد زغلول ومحمد عبده واحمد شوقي.. والرجلان الأولان كان حافظ ــ كما سبق أن نوهت ــ من أشد المعجبين بهما.. أما احمد شوقي فقد كان الشاعر الأول النابه بين الورى.. ورغم ما كان بين الشاعرين من منافسة طبيعية.. إلا أن كلا منهما كان يكنُّ للآخر إعجابه وتقديره.. وقد رأينا حافظا يعلن مبايعته لشوقي في حفل تكريمه سنة ١٩٢٦م ورأينا شوقي لما مات حافظ قبله بشهرين يرثيه أبلغ رثاء، و يقول في مطلع رثائه له:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي يامُنصف الموتى من الأحياء!

وفي قصيدة أخرى يخاطب فيها حافظ الشباب يقول:

رجال الغد المأمول إنا بحاجةٍ إلى قادة تبني، وشعب يعمِّرُ

رجال الغد المأمول إنا بحاجةٍ إلى عالم يدعو، وداعٍ يُذكِّرُ
رجال الغد المأمول إنا بحاجةٍ إلى عالم يدري، وعلم يُقرَّرُ
رجال الغد المأمول إنا بحاجةٍ إلى حكمة تُملى، وكفٍّ تحرِّرُ
رجال الغد المأمول إن بلادكم تناشدكم بالله أن تتذكروا
عليكم حقوق للبلاد، أجلُّها تعهُّدُ روض العلم، فالروض مقفرُ
قصارى منى أوطانكم أن ترى لكم يداً تبتني مجداً، ورأساً يفكر
فكونوا رجالاً عاملين أعزَّةً وصونوا حمى أوطانكم وتحرَّروا

* * *

ويتمنى حافظ لأمته أن يراها تباري غيرها من أمم الحضارة: علماً ووثباً إلى العلا، ونضالاً.. كما نرى في قصيدةٍ له أنشدها في حفل أقامته كلية البنات الأمريكية موجهاً فيه الخطاب إلى امريكا.. يقول فيها:

أي رجال الدنيا الجديدة مهلاً قد شأوتم بالمعجزات الرجالا
وفهمتم معنى الحياة، فأرصدتم عليها لكل نقصٍ كمالاً
وحرصتم على العقول فحرَّمتم عصيرا يراه قوم حلالا

وواضح أنه هنا يشير إلى قانون لتحريم المسكرات، كانت أمريكا أصدرته في ذلك الحين.. ثم يقول حافظ:

وقدرتم دقيقة العمر حرصاً وسواكم لايقدُرُ الأجيالا
قد طويتم فراسخ الأرض طيًّا ومشيتم على الهواء اختيالا
ثم سخَّرتم الرياح فسمتم حيث شئتم جنوبَها والشمالا

إلى أن يقول:

ثم حاولتم الكلام مع النجـ ـم فحَمَّلتُمُ الشعاع مقالا
ومحا «فُوردُ» آية المشي حتى شرعَ الناس ينبذون النِّعالا!
وأقمتم في كل أرض صروحاً تنطحُ السُّحب شامخات طوالا
وغرستم للعلم روضاً أنيقاً فوق دنيا الورى.. يمدُّ الظلالا

ثم يقول:

ليت شعري متى أرى أرض مصر ... في حمى الله تنبت الأبطالا
وأرى أهلها يُبارونكم علماً ... ووثباً إلى العلا.. ونضالا!

* * *

ولا ينسى حافظ أن يدعو أمته إلى توحيد كلمتها، وإلى نبذ التخاذل،والدعوة إلى توحيد الكلمة، ونبذ التخاذل، ليست بعيدةً عن دعوة الاصلاح وأيُّ اصلاح يمكن أن يتحقق اذا لم تكن الأمة متحدة متضامنة.. يقول حافظ:

ويد الاله مع الجماعة فاضربوا ... بعصا الجماعة، تظفروا بنجاح
كونوا رجالاً عاملين، وكذِّبوا ... والصبحُ أبلجُ حامل المصباح
ودعوا التخاذل في الأمور فإنما ... شبحُ التخاذل أنكر الأشباح
والله ما بلغ الشقاء بنا المدى ... بسوى خلافٍ بيننا وتلاحي

وعلى نحو ما كان حافظ رحمه الله يدعو إلى توحيد الكلمة ونبذ الاختلاف، وعلى نحو ما كان يدعو إليه من نشر التعليم، مع مساواة المرأة بالرجل في هذا المجال.. وعلى نحو ما كان يدعو إليه من تعضيد لمشروع الجامعة الأهلية وغيره من مشاريع الاصلاح.. كان حافظ أيضا يدعو إلى مواساة البائسين والمنكوبين، إن مجال الاصلاح عند هذا الشاعر لا يختص بنواحٍ دون أخرى.. فكل أمر يرجى منه الخير للأمة، أو لفريق من الأمة.. أو يدفع ضرراً أو شراً.. هو جزء من مخطط الاصلاح.. وقد كان لحافظ صوته المدوِّي كلما وقع حدث، أو وقعت مأساة لا في بلده مصر وحدها بل في أي بلد من بلاد الله.

عند كل مناسبة لانشاء مشروع خيري.. نجد حافظاً أول الداعين إلى تعضيده في قصيدة أو أكثر.. من ذلك قصائده في الحفل الذي أقامته جمعية رعاية الأطفال في الأوبرا سنة ١٩١٠م وجمعية إعانة العميان سنة ١٩١٦م وجمعية الطفل سنة ١٩٢٨م

وعندما تقع مأساة.. نجد حافظاً لا يقر له قرار، ولا يرتاح له ضمير.. فإذا به يهُز الناس هزاً بشعره الباكي الحزين، يصور المأساة تصويراً تهلعُ له النفوس، وتدمع له العيون، يستصرخهم أن يتسابقوا للبذل في سبيل اغاثة من لفحتهم المأساة بنارها، ووقعوا ضحية لها.. ولم تكن قصائد حافظ في هذه المواقف الصارخة تذهب سدى.

في سنة ١٩٠٢م شبت النار في مدينة ميت غمر من أعمال الدقهلية وبقيت تأكل كل ما تأتي عليه في هذه المدينة، وظلت هذه الحالة اسبوعاً ومات بسببها كثيرون، ودُمِّر الكثير من المنازل.. ولعظم هذه النكبة تألفت جماعة من الأعيان لتخفيف ويلات هذا المصاب، وحضت

سائلوا الليل عنهمو والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى ؟
كيف أمسى رضيعهم فقد الأمِّ ... وكيف اصطلى مع القوم نارا ؟
كيف طاح العجوز تحت جدارٍ ... يتداعى، وأسقُف تتجارى ؟
ربِّ إن القضاء أنحى عليهمْ ... فاكشف الكرب واحجب الاقدارا
ومُرِ النار أن تكفَّ أذاها ... ومرِ الغيثَ أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفُلْك يُروي ... هذه النار. فهي تشكو الأوارا!
أشعلت فحمة الدياجي فباتت ... تملأ الأرض والسماء شرارا

* * *

أكلت دورهم فلما استقلَّت ... لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عُراةً ... حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما ... أقبل الصبح يلبسون النهارا
حُلَّةً لا تقيهمُ الحرَّ والبر ... د، ولا عنهموا تردُّ الغبارا

ثم يقول:

أيها الرافلون في حُلل الوشي ... يجُّرون للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوماً جياعاً ... يتوارون ذلةً وانكسارا

إلى آخر هذه القصيدة المشجية.. وقد كان لها صداها في دفع أغنياء البلاد، وغيرهم من أهل اليسار إلى التبرع السخي لاغاثة منكوبي حريق ميت غمر.

وبنفس هذه الروح، وانطلاقاً من هذه المشاعر الدفاقة كتب قصيدته الذائعة الصيت في وصف زلزال مسينا بايطاليا وفيها يقول:

ما لمسين عوجلت في صباها ... ودعاها من الردى داعيان
ومحت تلكمُ المحاسن منها ... حين تمَّت آياتُها آيتان(١)
خُسِفت، ثم أُغرقت، ثم بادت ... قُضي الأمر كلُّه في ثواني
وأتى أمرها فأضحت كأن لم ... تك بالأمس زينة البلدان
ليتها أُمهلت فتقضي حقوقاً ... من وداع اللِّدات والجيران
لمحة يسعدُ الصديقان فيها ... باجتماع ويلتقي العاشقانِ
بغت الأرض والجبال عليها ... وطغى البحر أيَّما طغيانِ

ثم يقول:

رُبَّ طفل قد ساخ في باطن الأ ... رض ينادي: أُمي! أبي؟ أدركاني!
وفتاة هيفاء تُشوَى على الجمـ ... ر تعاني من حرِّه ما تعاني
وأب ذاهل إلى النار يمشي ... مُستميتاً تمتدُّ منه اليدانِ
باحثاً عن بناته وبنيهِ ... مسرعَ الخطوِ مستطير الجنان
تأكل النار منه، لاهو ناجٍ ... من لظاها.. ولا اللَّظى عنه واني
غصَّت الأرض، أتخم البحر مما ... طويا من هذه الأبدانِ
وشكا الحوتُ للنسور شكاةً ... ردَّدتها النسور للحيتان
أسرفا في الجسوم نقراً ونهشاً ... ثم باتا من كظَّةٍ يشكوانِ

* * *

وكثيرا ما كان حافظ ابراهيم في قصائده السياسية الثائرة.. يشكو من عنت الاحتلال.. يشكو من جوره وعسفه.. يشكو من وقوفه معارضاً لكل إصلاح.. وما كان يبالي أن يوجه خطابه بين آونة وأخرى، إلى عميده: عميد الاحتلال «كرومر» بمثل هذه الأبيات:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ... حواشيه..حتى بات ظلما منظما
تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الثرى ... وأن أصبح المصري حرًّا منعَّما!
عملتُم على عزِّ الجمادِ..وذلنا ... فأغليتمو طينا..وأرخصتمو دما!
إذا أخصبت أرض..وأجدب أهلها ... فلا أطلعت نبتاً، ولاجادها السَّما

والمعروف عن كرومر، أو اللورد كرومر..غروره وعجرفته الشديدة..

ولقد كان يفخر بجراءة عجيبة بما يزعمه لنفسه من إصلاحات تمت في عهده..منها ان الزراعة تقدمت في مصر وهو بهذا يتجاهل أنَّ نكبة مصر، لا.. ولا يمكن أن يعَّوض عنها أي تقدم من هذا القبيل.. خاصةً وهو تقدم إنما تمَّ لأن المحتلين الغاصبين هم المستفيدون منه أولاً.

وعندما يستقيل كرومر و يُزمع على مغادرة البلاد.. في سنة ١٩٠٧م يودعه حافظ أو يشيِّعه بقصيدةٍ تهكمية لاذعة.. يقول فيها:

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى ... فلا تكذب التاريخ..إن كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وإنه ... حقيق بتشييع المحبين والعِدا
فودِّع لنا الطود الذي كان شامخا ... وشيع لنا البحر الذي كان مُزبدا

ثم يخاطبه بقوله:

ينـاديك قد أزريت بالعلم والحجا ولـم تـبـق للـتـعليم«يالورد»معهدا
وانـك أخـصـبـت الـبـلاد تـعـمـدا وأجـدبـت في مصر العقول تعمدا !

وهذا هو السر.. أو هذا هو الهدف من وراء إخصاب البلاد.

ثم يقول:

قـضـيـت على أم اللـغـات وإنـه قـضـاء علينا أو سبيل إلى الردى !

نعم..لقد تعمد الاحتلال القضاء على اللغة العربية، أولاً بتقريره وجوب جعل دراسة العلوم في أكثر المدارس باللغة الانكليزية.. وثانياً بدعوته الآثمة والفاشلة إلى إلغاء الفصحى.. وابدال العامية بها.

ثم يقول الشاعر:

وأودعـت تـقـريـر الـوداع مـغـامـزاً رأيـنـا جـفـاء الـطـبـع فـيـه مجسَّدا
غـمـزت بـهـا ديـن الـنـبـي، وإننا لنغضب إن أغضبت في القبر أحمدا

و يشير الشاعر هنا إلى آخر تقرير قدمه كرومر لحكومته حمل فيه على المصريين حملة شعواء وتعرض فيه للاسلام بمطاعن لا تصدر إلاعن جاهل بحقيقة الاسلام، أو متعصب.

وقد كان معروفا عن حافظ شدة تدينه، وغيرته على الاسلام ولم يكن هذا غريبا من حافظ، وهو تلميد محمد عبده ومصطفى كامل ـــ على ما اشرت إليه من قبل ـــ وكلاهما كان مشهورا ـــ ولاسيما محمد عبده ـــ بدعوته الاسلامية الاصلاحية.

فإذا ما رأينا حافظا في هذا البيت الأخير يستشيط غضبا تجاه حملة كرومر على الاسلام، وعلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فإنما يُعَّبر بذلك عن عقيدة وإيمان وعن غيرة اسلامية لا تشوبها شائبة.

* * *

و يسوقنا الحديث هنا إلى أن نذكر بعض أبيات فرائد لحافظ مما لا يخرج بنا عن صُلب هذا البحث. منها قوله عن دعاء المظلوم:

دعـوة الـبـائـس المـعـذَّب سـور يـدفـع الشرعـن حـيـاض الـكـرامِ
وهـي حـرب على الـبـخـيل، وذي الـغـي..وسـيـف على رقاب اللئام

ومنها قوله في حكمة الزكاة:

لـو وفى بـالـزكـاة من جمع المـا ل ، وأهوى على اقتناء الحطام
ما شكـا الجوع مُعدمٌ أو تصدى لـركـوب الـشـرور. والآثـام!

ومنها قوله في التنديد بمدنية الغرب حينما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى :

لاهُمَّ إن الغرب أصبح شعلةً من هولها امّ الصواعق تفرقُ
العلم يُذكي نارها وتثيرها مدنية خرقاء.. لا تترفّق
ولقد حسبت العلم فينا نعمة تأسو الضعيف ورحمة تتدفق
فإذا بنعمته بلاء مرهق وإذا برحمته قضاء مطبق
إن كان عهد العلم هذا شأنه فينا ..فعهد الجاهلية أرفق!

وبعد فان الحديث عن حافظ شاعر الناس.. لاشك.. سيطول لو أردنا أن نصل في هذا الحديث إلى غاية مداه

اظن أنه يحسن الوقوف عند هذا الحد.. بعد أن تناول البحث أكثر النقاط ذات الصلة بحياة الشاعر من ناحية.. وبشعره الاجتماعي والوطني، ودعوته إلى الاصلاح من ناحية أخرى.

لكني لاأحب أن يختم هذا البحث قبل الاشارة إلى قصيدة من قصائد حافظ ابراهيم، تعتبر ذروة فريدة بين سائر درره الشعرية.. قصيدة ذات تاريخ.. قصيدة ربما يراها الكثيرون أروع قصائد حافظ في مجال الوطنية والاجتماع.

قصيدته: «مصر تتحدث عن نفسها» وكان قد نظمها سنة ١٩٢١م على أثر قطع مفاوضات جرت بين رئيس حكومة مصر عدلي يكن ووزير خارجية انكلترا لورد كيرزون وانتهت بالفشل.. في هذه القصيدة يشيد الشاعر بوطنه مصر وبتاريخها بأسلوب رائع جميل، أجرى فيه حديثه كله على لسان مصر.. على غرار ما صنعه في قصيدته عن اللغة العربية.

مصر في قصيدة حافظ هذه.. تناشد أبناءها وهي تروى لهم ألوانا من أمجاد ماضيها أن يحتذوا هذا الماضي.. ثم تهيب بهم أن يتعاونوا على التمسك بحقهم كاملاً حتى يبلغوه.

أجل ومهما كان من أمر الغاصبين فلا بد لأبناء مصر وهم طلاب حق يناضلون في سبيله دوما.. لابد لهم مهما طال الزمن من حصولهم عليه.

وهاهي مصر تناشد أبناءها أن يمهروها بالروح، ويردوا بها منازل العز ويرفعوا دولتها على العلم والاخلاق، ويتواصوا بالصبر.. وهو أهم ما ظل حافظ ينادي به طيلة حياته في دعوته الاصلاحية:

تقول مصر:

قد وعدت العُلى بكل أبيٍّ ... من رجالي.. فانجزوا اليوم وعدي
أمهروها بالروح فهي عروس ... تشنأُ المهر من عُروض ونقدِ
وردوا بي مناهل العز حتى ... يخطب النجمُ في المجرَّة وُدِّي
وارفعوا دولتي على العلم والأخلاق ... فالعلم وحده ليس يُجدي!
وتواصوا بالصبر.. فالصبر إن فا ... رقَ قوما فما له من مَسَدِّ!

ثم تدعو مصر.. أو يدعو شاعرُها إلى توحيد الكلمة ونبذ الشقاق فيقول:

إن في الغرب أعينا راصدات ... كحَّلتها الأطماع فيكم بسُهدِ
فوقها مِجهرٌ يريها خفايا ... كم.. و يطوي شعاعُه كلَّ بُعدِ
فاتقوها بجُنَّةٍ من وئام ... غير رث العُرى.. وسعيٍ وكدِّ
نحن نجتاز موقفا تعثُر الآ ... راء فيه.. وعثرةُ الرأي تُردي!

ثم يقول:

فقفوا فيه وقفة الحزم، وارموا ... جانبيه بعزمة المُستَعِدِّ
إننا عند فجر ليلٍ طويلٍ ... قد قطعناه بين سُهدٍ ووجدِ
غمرتنا سود الأهاويل فيه ... والأمانيُّ بين جزر ومَدٍّ!
وتجلى ضياؤه بعد لأيٍ ... وهو رمز لعهدي المسترد
فاستبينوا قصد السبيل وجدُّوا ... فالمعالي مخطوبة للمجدِّ!

* * *

نعم.. هذا هو حافظ ابراهيم، في هيامه بوطنه مصر.. وفي ندائه إياه في كل مناسبة تسنح إلى توحيد الكلمة.. وترك الخلاف.. وفي دعوته له دائما إلى النهوض والاصلاح.

هذا هو حافظ ابراهيم، شاعر مصر والشرق في الثُلثِ الأول من القرن العشرين.

هذا هو حافظ ابراهيم، شاعر الناس، الذي أحبَّ الناس.. وأحبه الناس وكان أقرب شعراء جيله وللآن.. إلى قلوب الناس:

هذا هو حافظ، صديق الجميع، صديق الكبراء والزعماء، وصديق الشعب. الذي كان يألف و يؤلف.. وكان بسماحة نفسه، و بسجاحة خُلقه، و بسحر حديثه، و بجاذبية شخصيته الودود المرحة.. يملأ النوادي والمجالس، أُنساً و بهجةً وفكاهةً.. وفي نفسه من الهمِّ والشجن.. وفي حياته من البؤس والشظف، ما نلمسه لمساً، في شعرِه الحزين عندما يشكو و يئن..

هذا هو حافظ، الذي كان شعره مرآة نفسه.. ومرآة حياته.. ومرآة عصره.. وكان في شعره الهادف إلى الاصلاح: الرائد الذي لايكذب أهله، والناصح الأمين.

وأخيرا ــ لا آخراً ــ هذا هو حافظ الذي لم يُرد أن يجعل من شعره وسيلة لهوٍ وترف.. أو أداة كسبٍ وانتفاع.. أو مجرَّد طريق «عُبور» إلى الشهرة.. أو فنا من أجل الفن.. وإنما آثر الطريق الصعب.. آثر أن يكون شاعر نضالٍ وكفاحٍ.. آثر أن يكون شاعر قومه في المقام الأول.. يبُثُهم شكواه منهم.. وغيرته عليهم.. وإخلاصه لهم.. ويدعوهم بلسان الشاعر الملهم، وباسلوب الفنان العبقري، إلى النهوض والتقدم والاصلاح.

ومع أن العصر الذي عاش فيه، كان عصر انبعاث الشعر، وكان يحفل بشعراء فحول عمالقة.. إلا أنه هو وزميله شوقي كانا وحدهما الطائرين المحلِّقين.. وكانا وحدهما شاعِري مصر.. وشاعِري العصر.

ولم يبالغ الدكتور طه حسين، عندما قال عنهما في كتابه «حافظ وشوقي».

«..هما أشعر أهل الشرق العربي، منذ مات المتنبي وأبو العلاء، من غير شك، هما ختام هذه الحياة الأدبية الطويلة الباهرة.. التي بدأت في نجد.. وانتهت في القاهرة، وعاشت خمسة عشر قرناً أو أكثر، والتي ستستحيل وتتطور، وتستقبل لوناً جديداً من ألوان الفن، وضرباً جديداً من ضروب المُثل العُليا في الشعر».



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة



• **قصص من سومرست موم**	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• **عن هذا وذاك**	(الطبعة الثانية)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• **الأصداف**	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• **الأمثال الشعبية في مدن الحجاز**	(نقد)	الأستاذ أحمد السباعي
• **أفكار تربوية**		الدكتور ابراهيم عباس نتو
• **فلسفة المجانين**		الأستاذ سعد البواردي
• **خدعتني بحبها**	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
• **نقر العصافير**	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• **التاريخ العربي وبدايته**	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ أمين مدني
• **المجاز بين اليمامة والحجاز**	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
• **تاريخ الكعبة المعظمة**	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• **خواطر جريئة**		الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• **السنيورة**	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• **رسائل إلى ابن بطوطة**	(ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• **جسور إلى القمة**	(تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
• **تأملات في دروب الحق والباطل**		الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
• **الحمى**	(ديوان شعر)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• **قضايا ومشكلات لغوية**		الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
• **ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة**		الأستاذ محمد علي مغربي
• **زيد الخير**		الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
• **الشوق إليك**	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• **كلمة ونصف**		الأستاذ محمد حسين زيدان
• **شيء من الحصاد**		الأستاذ حامد حسن مطاوع
• **أصداء قلم**		الأستاذ محمود عارف
• **قضايا سياسية معاصرة**		الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• **نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي**		الأستاذ بدر أحمد كريم
• **الإعلام موقف**		الدكتور محمود محمد سفر
• **الجنس الناعم في ظل الإسلام**		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• **ألحان مغترب**	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ طاهر زمخشري
• **غرام ولّادة**	(مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• **سير وتراجم**	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ عمر عبدالجبار
• **الموزون والمخزون**		الشيخ أبوتراب الظاهري
• **لجام الأقلام**		الشيخ أبوتراب الظاهري
• **نقاد من الغرب**		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• **حوار.. في الحزن الدافيء**		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• **صحة الأسرة**		الدكتور زهير أحمد السباعي
• **سباعيات**	(الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
• **خلافة أبي بكر الصديق**		الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• **البترول والمستقبل العربي**	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
• **إليها ..**	(ديوان شعر)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• **من حديث الكتب**	(ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية)	الأستاذ محمد سعيد العامودي
• **أيامي**		الأستاذ أحمد السباعي

• التعليم في المملكة العربية السعودية	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• أحاديث وقضايا إنسانية		الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
• البعث	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي مغربي
• شمعة ظمأى	(ديوان شعر)	الدكتور أسامة عبدالرحمن
• الإسلام في نظر أعلام الغرب	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
• مدارسنا والتربية	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع
• وحي الصحراء	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بلخير
		الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
• طيور الأبابيل	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• قصص من تاغور	(ترجمة)	الأستاذ عز يز ضياء
• التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية		الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• زوجتي وأنا	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• لن تلحد		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• عمر بن أبي ربيعة		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• رجالات الحجاز	(تراجم)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• حكاية جيلين		الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• من أوراقي		الأستاذ محمد سعيد العامودي
• في رأيي المتواضع		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي

تحت الطبع :

• ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عز يز ضياء
• ديوان حسين عرب		الأستاذ حسين عرب
• لا رق في القرآن		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• من مقالات عبدالله عبدالجبار		الأستاذ عبدالله عبدالجبار
• الإسلام في معترك الفكر		الشيخ سعيد عبدالعز يز الجندول
• البرق والبر يد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف		الأستاذ عبدالرحمن المعمر
• عام ١٩٨٤ لجورج أورويل	(قصة مترجمة)	الأستاذ عز يز ضياء
• وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• هكذا علمني ورد زورث		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• الطاقة نظرة شاملة		الدكتور عبدالهادي طاهر
• التنمية قضية	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	(الطبعة الثانية)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• غداً أنسى (قصة طويلة)	(الطبعة الثانية)	الدكتورة أمل محمد شطا
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي
• الحضارة تحد	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• الجبل الذي صار سهلا	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد قنديل

سلسلة : **الكتاب الجامعي**

صدر منها :

• الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة	الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا	الدكتور عبدالمنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره	الدكتور أحمد رمضان شقلية
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج	الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• مباديء القانون لرجال الأعمال	الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية	الأستاذ هاشم عبده هاشم
• قراءات في مشكلات الطفولة	الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور (ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين	الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية	الدكتور عبدالرحمن فكري الدكتور محمد عبدالهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبدالله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
• المدخل في دراسة الأدب	الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين	الدكتور لطفي بركات أحمد
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• الوحدات النقدية المملوكية	الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
• الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم	الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
• التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن	الدكتور خضير سعود الخضير

تحت الطبع :

• المنظمات الاقتصادية الدولية	الدكتور حسين عمر
• الاقتصاد الاداري	الدكتور فرج عزت
• التعلم الصفي	الدكتور محمد زياد حمدان
• الاقتصاد الصناعي	الدكتور سليم كامل درويش
• مبادىء الأحصاء	الدكتور جلال الصياد الأستاذ عادل سمرة
• مبادىء الطرق الإحصائية	الدكتور جلال الصياد الدكتور عبدالحميد محمد ربيع

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزّي
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبدالله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر حلواني
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة بنت عبدالملك آل الشيخ
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الانجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة) — الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
- افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبدالكريم علي باز
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- تقويم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا

تحت الطبع :

- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر — الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر
- التصنيع والتحضر في مدينة جدة — الأستاذة عواطف فيصل بياري



صدر منها :

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — الدكتور محمود الشهابي
- التخلف الإملائي — الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية — إعداد إدارة النشر بتهامة
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية) — إعداد إدارة النشر بتهامة
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) — الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (دراسة وتحقيق) — الشيخ أحمد بن عبدالله القاري، الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان، الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم — الأستاذ إبراهيم سرسيق
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) — الدكتور عبدالله محمد الزيد
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) — الدكتور زهير أحمد السباعي
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي — الدكتور عاطف فخري
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف — الأستاذ شكيب الأموي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي الشيخ
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) — الأستاذ فؤاد عنقاوي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي قدس
- ماذا تعرف عن الأمراض ؟ — الدكتور اسماعيل الهلباوي
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- القرآن وبناء الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي عبده بركات
- الطب النفسي معناه وأبعاده — الدكتور محمد محمد خليل
- الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- مجموعة الخضراء (دواوين شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ علي الخارجي
- ديوان السلطانين — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- الامكانات النووية للعرب وإسرائيل — الدكتور صدقة يحيى مستعجل
- رحلة الربيع — الأستاذ فؤاد شاكر
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية) — الأستاذ جواد صيداوي
- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة

• المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر)	الأستاذة منى غزال
• من فكرة لفكرة (الجزء الأول)	الأستاذ مصطفى أمين
• رحلات وذكريات	الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
• ذكريات لا تنسى	الأستاذ محمد المجذوب
• تاريخ طب الأطفال عند العرب	الدكتور محمود الحاج قاسم
• مشكلات بنات	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• دراسة في نظام التخطيط (في المملكة العربية السعودية)	الأستاذ يوسف ابراهيم السلوم

تحت الطبع :

• إليكم شباب الأمة	الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• سرايا الإسلام	الشيخ أبوتراب الظاهري
• قراءات في التربية وعلم النفس	الأستاذ فخري حسين عزّي الدكتور لطفي بركات أحمد
• الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية	الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
• الحجاز واليمن في العصر الأيوبي	الدكتور جميل حرب محمود حسين
• ملامح وأفكار	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• المذاهب الأدبية في شعر الجنوب	الدكتور علي علي مصطفى صبح
• النظرية الخلقية عند ابن تيمية	الدكتور محمد عبدالله عفيفي
• الكشاف الجامع لمجلة المنهل	الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
• ديوان حمام	الأستاذ محمد مصطفى حمام
• رحلة الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
• فجر الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
• قريش والاسلام	الدكتور حسين مؤنس
• الماء ومسيرة التنمية	الأستاذ مصطفى نوري عثمان
• الدفاع عن الثقافة	الدكتور عبدالعزيز شرف
• الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث	الأستاذ على مصطفى عبداللطيف السحرتي
• مشكلات لغوية	الدكتور شوقي النجار
• دليل مكة السياحي	اعداد تهامة للنشر والمكتبات
• من فكرة لفكرة (الجزء الثاني)	الأستاذ مصطفى أمين
• مسائل شخصية	الأستاذ مصطفى أمين

كتاب للأطفال
TIHAMA

صدر منها :

مجموعة : حكايات للأطفال — ينقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها
- سوسن وظلها
- الهدية التي قدمها سمير
- أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
- الأم ياسمينة واللص

مجموعة : لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد
- الكلب
- السلحفاة
- الأسد
- الحمار الأهلي
- الفرس
- الغزال
- الوعل
- الضب
- الغراب
- الجمل
- البغل
- الفراشة
- الدجاج
- الحمار الوحشي
- الجاموس
- الثعلب
- الأرنب
- الذئب
- الفأر
- الخروف
- البط
- الببغاء
- الحمامة
- البوم
- البجع
- الهدهد
- الكنغر
- الخفاش
- النعام
- فرس النهر
- التمساح
- الضفدع
- الدب
- الخرتيت

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة — إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- سمكة ضيعها الكسل
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة : التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر
- قد قامت الصلاة
- الصــوم
- الصلاة
- الاستخارة
- صلاة الجنازة
- صلاة المسبوق
- صلاة الجمعة
- صلاة الكسوف والخسوف
- الشهادتان
- أركان الإسلام
- التيمم
- الوضــوء
- الصدقات
- المسح على الخفين
- المسح على الجبيرة والعُصابة
- سجود التلاوة
- الزكاة
- زكاة الفطر
- زكاة النقدين
- زكاة بهيمة الأنعام
- زكاة العروض

• الصرصور والنملة	الأستاذ عمار بلغيث
• السمكات الثلاث	الأستاذ عمار بلغيث
• النخلة الطيبة	الأستاذ اسماعيل دياب
• الكتكوت المتشرد	الأستاذ عمار بلغيث
• المظهر الخادع	الأستاذ عمار بلغيث
• بطوط وكتكت	الأستاذ اسماعيل دياب

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة:وطني الحبيب

• جدة القديمة	الأستاذ يعقوب محمد اسحق
• جدة الحديثة	الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة:حكايات ألف ليلة وليلة

• السندباد والبحر	الأستاذ يعقوب محمد اسحق

• الديك المغرور والفلاح وحماره	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• الطاقية العجيبة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• الزهرة والفراشة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• سلمان وسليمان	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• زهور البابونج	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• سنبلة القمح وشجرة الزيتون	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• نظيمة وغنيمة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• جزيرة السعادة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• الحديقة المهجورة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• اليد السفلى	إعداد { الدكتور محمد عبده يماني / الأستاذ يعقوب محمد اسحق

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By: F.M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D.EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five Year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference Second Edition
  By Dr. Abdulla Mohamed A Zaid
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat

  By: Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By: Dr. Baha Bin Hussein Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who,s Who in Saudi Arabia.
- An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- The Role Of Groundwater In The Irrigation And Drainage Of

  The Al Hasa Of Eastern Saudi Arabia

  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib


مطابع سحر